مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة

العدد الخامس

1988م.

- المعارف اللازمة للداعية
- المحاولات الإستعمارية لتقويض الإسلام في الجزائر
- منهج الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في إصلاح التعليم الإسلامي
- الفكر التربوي بين الأصالة والتغريب
- جامعة الزهراء جامعة علمية يخسرها العالم الإسلامي

خصائص الإنسان ورسالته في تعمير الكون في الفكر الإسلامي

د. عمر التومي الشيباني

أولاً: خصائص الإنسان في الفكر الإسلامي:

مما تقدم - في العدد الرابع - من شرح موجز لمفهوم الإنسان ولأهم التعريفات والتفسيرات التي ذكرت له ولأبعاد الطبيعة البشرية وما بينها من ترابط وتكامل في نظر الشريعة الإسلامية وفي الفكر الإسلامي، يمكن أن تستخلص أهم خصائص الإنسان في المفهوم الإسلامي له، كما تصوره النصوص الإسلامية ومعطيات الفكر الإسلامي في مختلف عصوره. ومن هذه الخصائص تمكن الإشارة الموجزة إلى ما يلي:

الخاصة الأولى:

تتمثل في خلق الإنسان من طين على شكل متميز يدل على عظمة الخالق وكمال قدرته وعظيم تقديره وتكريمه للإنسان بخلقه على هذا الشكل المتميز وهذه الصورة الجميلة البديعة المنسجمة والمتكاملة في صنعها وتركيبها وتأدية وظائفها، التي تستحق الحمد والشكر في كل وقت وحين. وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون﴾ (الحجر/ 26).
﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ (المؤمنون/ 12).
﴿والله خلقكم من تراب...﴾ (فاطر/ 11).
﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ (التين/ 2).
﴿منها خلقناكم، وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ (طه/ 55).

وفي إشارة القرآن الكريم إلى خلق الإنسان من تراب الأرض وطينها وعودته إليها بعد مماته وإخراجه إليها بعد مماته وإخراجه منها ثانية عند بعثه وحشره يوم القيامة، ما يدل على العلاقة الوثيقة التي تربط الإنسان ببيئته وبالكون المحيط به، وما يوجه الإنسان منذ البداية إلى أنه جزء لا يتجزأ من الكون المحيط به وإلى ضرورة تفاعله المثمر مع العالم المحيط به بجسمه وعقله وروحه، بحيث يؤثر فيه ويتأثر به، وينتفع بما أودعه الله فيه من أسرار ومنافع، ويحافظ على ثرواته ومواردة، ويعمل على تنميتها وتطويرها وتحسينها بما منحه الله من عقل وعلم وقوة عضيلة.

وخلق الإنسان من طين يمكن أن يقارن بخلق الله للملائكة من نور وخلقه الجان من نار، كما تشير الآيتان الكريمتان التاليتان المتمثلتان في:

قوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون، والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾ (الحجر/ 27-26).

وقوله تعالى: ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار، وخلق الجان من مارجٍ من نار﴾ (الرحمن/ 15-14).

وقد تصور الشيطان نتيجة لهذا أنه أفضل من آدم عليه السلام وأقوى منه خلقاً، لأنه خلق من نار في حين خلق آدم من طين. وقد حكى القرآن الكريم عن الشيطان قوله: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ (الأعراف/ 12).

(1) محمد سعيد السيوطي، من الفكر والقلب. (ط 2) دمشق: مكتبة الفارابي، 1972، ص 104-96.

ولهذا التصور الخاطىء من إبليس وتكبره وعجبه وحسده، فإنه لم يمتثل لأمر ربه بالسجود لآدم، سجود تحية واحترام وتكريم لآدم وتعبير عن طاعة الله عز وجل وامتثال لأمره تعالى، وليس سجود عبادة، لأن العبادة لا تكون إلا لله وحده.

يقول تعالى في تصوير امتناع الشيطان عن السجود لآدم للغايات التي ذكرنا: ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين**﴾ (البقرة/ 34).

ومما يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما في شرح هذه الآية الكريمة: ﴿**أن الشيطان لما أبى أن يسجد أبلسه، أي آيسه من الخير كله، وجعله شيطاناً رجيماً، عقوبة لمعصيته....**﴾[2].

الخاصية الثانية:

تتمثل في قدرة الإنسان على القيام بالعمليات العقلية العليا، كالتفكير المجرد الذي يتعلق بأمور معنوية مجردة، والتأمل والتدبر في ظواهر الكون والتخيل والنظر العلمي بقصد الكشف عن الحقيقة في موضوعيه وتجرّد عن الهوى والمؤثرات الذاتية، والقياس والاستدلال والاستنباط والنتائج الصائبة من التجارب المتشابهة، إلى غير ذلك من العمليات العقلية التي يمتاز الإنسان بالقيام بها على الحيوان الأعجم والتي ترتبط جميعاً بالعقل الذي سبق الحديث عنه في الفقرة السابقة من هذا البحث كأحد الأبعاد الأساسية للطبيعة البشرية، والذي يعتبر من أهم منح الله للإنسان التي فضله وميزه بها على سائر الكائنات الأخرى.

إن الإنسان يشارك بقية الحيوانات في الخصائص الحيوانية العامة: من حركة، وتغذّ، وسكن، وحسن، وما إلى ذلك من الصفات العامة المشتركة بين جميع الحيوانات، ولكنه يتميز عن بقية الحيوانات بالاستعداد للتفكير المجرد والتكيف والتعاون مع أبناء نوعه والاجتماع المهيأ لهذا التعاون، ولتدبر وقبول

---

(2) ينظر: مع القرآن العظيم: الموجز الوافي لتفسير الحافظ بن كثير. (الجزء الأول)، تلخيص محمد البوهي، ص 58.

الحقائق عن بصيرة وإرادة وقصد واقتناع، وللوقوف عند الحجة والاقتناع، ولمعرفة الكثير عن نفسه وعن العالم المحيط به وبالتالي معرفة ربه، لأن «من عرف نفسه فقد عرف ربه»، كما جاء في الحديث النبوي الشريف. كما يتميز عن بقية الحيوانات أيضاً باستعداده لمعرفة مكانه ومبرر وجوده ورسالته في هذا الكون، وبوعيه بأن هناك في الطبيعة أكثر مما تراه عينه وبأن للكون المحيط به ـ في أرجائه الواسعة ومحتوياته المتعددة ـ سنناً وقوانين يسير وفقها بتقدير من الله الخالق العزيز العليم. ومعرفة الإنسان لهذه السنن والقوانين هي التي تعزز سلطانه على هذا الكون بعد توفيق الله له، وتزيد من إمكانات انتفاعه بما أودعه الله فيه من أسرار وخيرات ومنافع للناس.

ومن غير شك أن الناس ليسوا متساوين في استعداداتهم وقدراتهم العقلية، وأنهم ليسوا جميعاً ينظرون إلى الكون نظر العقل والفكر الذي يمكن التوصل به من المصنوع إلى الدلالة على الصانع. فمنهم من يكون نظره إلى الكون وما فيه نظراً مجرداً بسيطاً شبيهاً بنظر الحيوان إليها، ومن ثم يعجز أو يغفل عن التفكير في عظمة الخالق جل وعلا، ولا يستدل بالأسرار العظيمة التي تبدو له من ملاحظته ودراسته لظواهر الكون على وجود الخالق جل وعلا ولا يصل من ورائها إلى الإيمان بالله تعالى. وبذلك يكون ممن قال الله تعالى فيهم:

﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس، لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام، بل هم أضل، أولئك هم الغافلون﴾ (الأعراف/ 179).

﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾.

وبخاصية العقل والتفكير التي ميز الله بها الإنسان على غيره من الحيوانات، يستطيع الإنسان أن يدرك حقائق التاريخ ويستفيد من دروسها وعبرها، ويخطط لمستقبله ويواجه المستقبل على وعي وبصيرة في ضوء حقائق الماضي ومعطيات الحاضر، ويعي الموت وما بعد الموت، ويقبل ما جاء به الأنبياء والرسل عن الله تعالى من رسالات وتعاليم ويبرهن على صحتها، ويبرهن على إثبات وجود الله تعالى وصحة معاني العقيدة والحقائق الغيبية ويتفهم هذه المعاني والحقائق ويقتنع بها، ويبدع ويخترع، إلى غير ذلك من الأمور التي يستطيع

الإنسان أن يدركها ويتدبرها ويتفهمها ويبرهن على وجودها وعلى صحتها بعقله وتفكيره.

ولهذه الخاصية العقلية، أمر الله الإنسان في كثير من آيات القرآن الكريم أن يتدبر وينظر في نفسه وفي ملكوت ربه ليتوصّل بهذا النظر العقلي وبذلك التدبر من المصنوع إلى الدلالة على الصانع ومن النظر في المخلوق إلى الإيمان بالخالق سبحانه. كما أمر أن يتدبر حقائق التاريخ وينظر في عاقبة من سبق الأمم، وكلفه دون غيره من الحيوانات بقبول ما جاء به الأنبياء والرسل، لأنه لا تكليف إلا بالعقل.

وقد سبقت الإشارة إلى كثير من هذه الآيات القرآنية التي تدعو الإنسان إلى التدبر والنظر في نفسه وفي ملكوت ربه، وإلى بعض الأحاديث النبوية الشريفة وآثار السلف الصالح التي تشيد بفضل العقل عند الحديث عن العقل كأحد أبعاد الطبيعة البشرية.

وقد أشارت بعض تلك الآثار إلى أن العقل مهما كانت قدرته الإدراكية فإنها محدودة، خاصة بالنسبة للأمور الغيبية، إذا ما أريد معرفة كنه حقيقتها، لأن مثل هذه المعرفة فوق ما تستطيعه قدرة العقل البشري المحدود في إمكاناته لارتباطه كما قدمنا بالحس والمادة.

الخاصية الثالثة

تتمثل في خاصية النطق والبيان والتعامل بالرموز اللغوية والاتصال اللغوي. فالإنسان كما يمتاز بخاصية التفكير والقدرة على القيام بالعمليات العقلية العليا الأخرى، فإنه يمتاز أيضاً باستعداده لاكتساب أية لغة من اللغات الإنسانية وبقدرته على استخدام لغة حقيقية وعلى الكلام والبيان والتعامل برموز وألفاظ ذات دلالات لغوية، وهي القدرة التي لا يمتلكها أي من أنواع الحيوان الأخرى مهما بلغت درجة رقيه. فالإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي له خاصية الكلام الإرادي المقصود ذي الدلالة المعنوية الواضحة، وخاصية البيان الذي ورد في قوله تعالى: ﴿**الرحمن، علّم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان**﴾ (الرحمن/ 4-1)، والذي يدل على الوضوح والإبانة الكاشفة. ومعنى هذا أن البيان الذي يمتاز به الإنسان يختلف عن مجرد النطق الصوتي، «لأن مجرد النطق

الصوتي ليس من خواص الإنسان وليس مناط إنسانيته الناطقة التي يتضمنها التعريف السائد لدى المناطقة للإنسان بأنه «حيوان ناطق»، بل يمكن أن يضاف لغير الإنسان. وقد جاء المنطق مضافاً إلى الطير في الآية السادسة عشر من سورة النحل: **وورث سليمان داود، وقال: يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء، إن هذا لهو الفضل المبين**﴾. ولا تسند اللغة العربية إسناد البيان بمفهومه الخاص إلى حيوان أعجم أو جماد. .»[3].

ولتميّز الإنسان بالكلام، عرفه أحد علماء المسلمين المحدثين بأنه: «حيوان يتكلم»، مشيراً بذلك إلى أن «الكلام أهم خاصيات الإنسان. وعماد الكلام هو اللغة، بدونها لا نطق ولا منطق ولا حوار مع الطبيعة، ولا تواصل بين الأجيال ولا بين العصور. وهذه هي الأبعاد الأفقية للشخص.

بدون اللغة كذلك لن يتمكن الشخص من معرفة أبعاده العميقة (مثل: الحرية، والقيم، والتملك).

وبما أن اللغة ملتقى مجموع أبعاد الشخص، وجب أن تتبوأ الرتبة الأولى في البحث عن الإنسان: إنها جوهر الكلام والنسق الذي تصبح فيه المقاطع الصوتية هادفة تواصلية»[4].

واللغة ـ كما نعلم ـ ليست مجرد تعبير، ولكنها أيضاً أداة تفكير. والكلام ليس مجرد مجموعة من الألفاظ، ولكنه مجموعة من الألفاظ تحمل معنى ورتبت على نسق معين. والكلمات اللغوية ـ باعتبارها ألفاظاً دالة على معان ـ تعتبر نوعاً من الرموز الكثيرة التي يستعملها الإنسان للتعبير عما يختلج في نفسه من أفكار وعواطف وانطباعات عن الواقع المحيط. فالإنسان يمتاز بقدرته على الرمز، أي بقدرته على أن يجعل من شيء ما رمزاً دالاً على شيء آخر، وذلك حتى يستطيع أن يعبر عن الحالات الإدراكية والوجدانية التي تطرأ عليه. ولعلنا لو تتبعنا مناشط الإنسان على كثرتها وتنوعها واختلافها فيما بينها لوجدناها في مجموعها رمزية

---

(3) عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء)، القرآن وقضايا الإنسان. بيروت: دار العلم للملايين، 1972، ص 51-49.

(4) ينظر: د. محمد عزيز الحبابي، «الإنسان حيوان يتكلم»، مجلة دعوة الحق المغربية. السنة السادسة عشر، العدد الأول، يونيو 1973، ص 115-107.

الطابع، حتى إنه من الممكن القول: إنه ما من نشاط ذي بال يقوم به الإنسان إلا والرمزية لبه وصميمه. فالرياضيات رموز، والأدب رموز، والفن بجميع ألوانه رموز، والتفاهم في الحياة اليومية قائم على الرموز، وبغير العملية الرمزية يصبح الاتصال بشتى أشكاله وألوانه ضرباً من المحال[5].

وعلى الرغم من كثرة الرموز التي يستخدمها الإنسان في اتصالاته بالآخرين، فإن اللغة تعتبر أهم الرموز والأدوات التي يستخدمها الإنسان في اتصاله بالآخرين وفي التعبير عن أفكاره وعواطفه وانطباعاته وعن حاجياته ورغباته.

فاللغة تعتبر «الجذع الكبير الذي يتفرّع منه عدد من الرموز التعبيرية... لأنها الوعاء الفكري للماضي والحاضر والمستقبل...

ولهذه اللغة على مستوى التعبير الرمزي «بنات» تتولد على شكل رموز فنية قومية...، تضم الشعر، والقصة، والمسرحية، أو أي شكل أدبي فني آخر تكون اللغة واسطة فيه.

وتقع خارج حيز اللغة رموز تعبيرية متعددة، متكاملة في مدى فعاليتها والرموز اللغوية، متكاملة فيما بينها في إبراز الأصالة القومية. ومن أهمها: الرسم، والموسيقى،.. والفن المعماري، وفن النحت، وما يلحق به من تقنيات صناعية، كالحفر في الخشب، وصناعة الفخار، والزخارف الملحقة به وبطرز الأزياء،... وغير ذلك من «حرفيات»، يتصل أكثرها بالموروث الشعبي...»[6].

واللغة كأصوات وألفاظ رامزة ومعبرة، ليست مجرد ظاهرة بيولوجية عضوية، بل هي أيضاً ظاهرة نفسية واجتماعية وانثروبولوجية، لها أسسها النفسية والاجتماعية والانثروبولوجية، بجانب أسسها البيولوجية والعضوية التي يدرسها علماء اللغة والأصوات. ولاختلاف هذه الأسس لظاهرة اللغة لدى الإنسان، تفرّع علم اللغويات أو اللسانيات الحديث إلى عدة فروع، كان من بينها: علم

---

(5) ينظر: د. زكي نجيب محمود، فلسفة وفن. القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، 1963، ص 51-49.

(6) د. إحسان عباس، «الأصالة في الثقافة القومية المعاصرة»، في: القومية العربية والإسلام. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1981، ص 453-445.

اللغويات البيولوجي، وعلم اللغويات النفسي، وعلم اللغويات الاجتماعي، وعلم اللغويات الانثروبولوجي[7].

ولعل ما يهمنا من هذه الفروع في هذا البحث هي الفروع الثلاثة الأخيرة التي يدرس علم اللغويات النفسي منها اللغة كظاهرة نفسية فردية، ينتجها الإنسان ضمن ظروف نفسية وسلوكية معينة، وتنشأ لدى الفرد كرد فعل نفسي للثقافة التي يتفاعل معها. وقد يكون هذا التفاعل إيجابياً يشجع على تعلمها، وقد يكون سلبياً يعوق تعلمها. وعلم اللغويات الاجتماعي الذي يدرس اللغة كظاهرة اجتماعية يكتسبها الإنسان من المجتمع الذي يعيش فيه ويستخدمها في مجالات عديدة من حياته الاجتماعية، ويعني بكل مظهر من مظاهر العلاقة بين اللغة والمجتمع. وفي المفهوم الواسع لهذا العلم يمكن أن تدرس اللغة كأهم عناصر التكوين الفكري لأمة من الأمم، وكأهم الروابط التي تجعل من الجماعة قوماً وكوعاء لثقافة القوم وكوسيلة للتواصل بينهم وكأداة لجمع شتاتهم. والجماعة التي تربطها لغة واحدة هي التي يصدق عليها الوصف الحقيقي أكثر من أي جماعة أخرى: نعم هناك روابط أخرى تجعل من الجماعة قوماً وأمة، وذلك مثل رباط المكان، ورابطة الثقافة المشتركة، ورابطة التاريخ المشترك، وما إلى ذلك من الروابط التي تجعل من الجماعة قوماً وأمة. ولكن أهم هذه الروابط جميعاً هي رابطة اللسان واللغة. ولهذا عندما أرسل الله رسله لهداية عباده من البشر، أرسل كلاً منهم بلسان قومه ليكون بيان الرسالة ميسوراً له وفهم روحها منهم مضموناً. وصدق الله العظيم إذ يقول: «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه، ليبين لهم»[8].

وبالنسبة للإنسان العربي بالذات، فإنه يكفي لوصفه أو الحكم عليه بالعروبة أن يكون عربي اللسان، بقطع النظر عن العرق أو الأصل المنحدر منه. ومما يروى عن الحجاج بن يوسف الثقفي أنه قال يوماً لأهل الكوفة: «لا يؤمكم

---

(7) ينظر: عبد الغفار هلا، «اللغة بين الفرد والمجتمع»، مجلة اللسان العربي. العدد الثالث والعشرون ص 45-13.

(8) ينظر: د. محمد أحمد خلف الله، «التكوين التاريخي لمفاهيم الأمة والقومية والوطنية والدولة والعلاقة بينها»، في: القومية العربية والإسلام. مرجع سابق، 19.

إلا عربي». فوثب البعض بالقارىء «يحيى بن وثاب»، وهو مولى كان يؤم في الصلاة، ليمنعوه من ذلك، فأنّبهم الحجاج قائلاً: «ويحكم! إنما قلت: عربي اللسان»[9]. وقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس: إن الرب واحد، وإن الأب واحد، وإن الدين واحد، ألا وإن العربية ليست لكم بأب ولا أم، إنما هي لسان، فمن تكلم العربية فهو عربي».

وقد اختلف العلماء في أصل اللغة التي امتاز بها الإنسان. فذهب بعضهم إلى أنها توقيفية، وأن الله هو الذي ألهم الإنسان وزوده بالقدرة على بناء اللغة. وينحاز إلى هذا الموقف الأشاعرة من أهل السنة. ويقابل هذا الموقف مواقف أخرى كثيرة. كان من بينها موقف من يرى أن اللغة هي تواضع واصطلاح في المقام الأول. ومما يستدل به أصحاب هذا الموقف تعدد الألسن بتعدد الأزمنة والأمكنة والأقوام والشعوب والأجناس. ويذهب فريق آخر إلى أن اللغة ترجع في نشأتها إلى غريزة زود بها في الأصل جميع أفراد النوع الإنساني. ولا يزال هناك فريق آخر يذهب إلى أنها نشأت في بدايتها كتقليد لأصوات الطبيعة.

ولعل أنسب المواقف وأقربها إلى ظاهر النصوص الدينية هو الموقف الذي يقول بالتوقيف في أصل اللغة. ومما يستدل به القائلون بهذا الموقف قوله تعالى: ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها**...﴾ الآية (البقرة/ 31).

ومما تشير إليه هذه الآية الكريمة: «أن الله العليم الحكيم «علم آدم» رمز هذا الجنس العظيم وأباه «الأسماء كلها بلا استثناء، وأقدره حتى مات في طور البشرية الأولى على التصرّف بكل ما يجد حوله من الأشياء، وبالوراثة أودع نسله المكرم مثل هذا الاستعداد. ومن يعرف الأسماء يعرف المسميات، مهما تختلف مدلولاتها باختلاف اللغات، وتتنوع تبعاً لتنوع الأجيال والحضارات. وإن في التعبير «بالأسماء» لأمارة على وجود مسمياتها. ولا ريب أنها كلها لم تكن موجودة في طور البشرية الأولى، وإنما وجدت، أو «أوجدت« بالتدريج مع تعاقب الأطوار. وهذا يؤكد أن في تعليم آدم الأسماء كلها تصريحاً بوراثة بنيه استعداداً لمعرفة شاملة لكل الحقائق،... وقدرة لا حد لها على وضع المصطلحات لكل ما

(9) كما نقله: د. عبد العزيز الدوري، من كتاب الأنساب للبلاذري، في: «الإسلام وانتشار اللغة العربية والتعريب»، في: القومية العربية والإسلام. ص 65.

يجدونه أو يوجدونه في أصالة وإبداع»[10].

و«الأسماء» التي وردت في الآية الكريمة السالفة الذكر ليست مصطلحاً نحوياً، بحيث تقابل الفعل والحرف وتكون معهما الأركان الثلاثة للكلام العربي، لأن هذه المصطلحات النحوية (الإسم، والفعل والحرف) لم تظهر في ذلك الوقت الذي عُلِّمَ فيه آدم الأسماء، بل ظهرت في زمن متأخر من تاريخ البشرية، وهو زمن النحاة. ومن الممكن أن تكون «الأسماء» التي وردت في الآية الكريمة ـ والله أعلم بمراد كلامه ـ من «السمة» أي العلامة، سواء أكانت هذه السمة، هي سمة أسماء أو أفعال أو حروف.

ومن حمل «الأسماء» في تلك الآية الكريمة على ظاهرها ـ حاول أن يبين الحكمة في الاقتصار على الأسماء في تعليم آدم عليه، مع أن اللغة تشمل الأفعال والحروف أيضاً، على أساس: أن «الأسماء» هي أقوى القبل الثلاثة، وأنه لا بد لكل كلام مفيد من الإسم. ولكن الجملة المفيدة المستقلة قد تستغني عن كل من الفعل والحرف. ولما كانت الأسماء من القوة والأولوية في النفس والرتبة، على ما لا خفاء فيه، جاز أن يكتفي بها عما هو تال لها[11].

وكما اختلف علماء اللغة العربية في أصل اللغة، هل هو توقيفي أو هو مواضعة واصطلاح، فإنهم اختلفوا أيضاً في أصل الحركات الإعرابية: من رفع، ونصب، وجر، وجزم. فذهب فريق من النحاة إلى أنها ترجع إلى عوامل فلسفية. ومن أبرز هذا الفريق النحوي الشهير سيبويه الذي يرى أن العامل هو أساس التفرقة بين ألقاب الإعراب وألقاب البناء، كما يرى أن الألفاظ لها قوة في إحداث الإعراب. ومذهب سيبويه هذا هو مذهب البصريين والجمهور. وقد خالف «ابن مضاء القرطبي» في كتابه: «الرد على النحاة» مذهب سيبويه، وذهب إلى أن الحركات الإعرابية ترجع إلى عوامل توقيفية.

---

(10) د. صبحي الثالح، «القيم الإسلامية والتقدم العلمي والتكنولوجي»، مجلة الفكر الإسلامي اللبنانية. السنة الخامسة، العدد الخامس، 1974، ص 26-15.

(11) ينظر: الإمام عبد الكريم القشيري، نحو القلوب. (تحقيق: د. أحمد علم الدين الجندي)، ليبيا ـ تونس: الدار العربية للكتاب، 1979، ص 122. (من تعليق المحقق).

ومن علماء اللغة العرب المحدثين تعرضوا لهذا الموضوع «الدكتور تمام حسان» الذي انتقد في كتابه: «اللغة بين المعيارية والوصفية» رأى القائلين بالتوقيت في أصل اللغة والحركات الإعرابية، ومال إلى أن اللغة ظاهرة اجتماعية. ففي نظره «إن الفاعل إذا كان مرفوعاً في النحو فلأن العرف ربط بين فكرتي الفاعلية والرفع، دون ما سبب منطقي واضح. وكان من الجائز أن يكون الفاعل منصوباً والمفعول مرفوعاً لو أن المصادفة لم تجر على النحو الذي جرت عليه... فقد جاءت الحركات الإعرابية في نمطية اللغة على هذه الصورة لأن العرف ارتضاها...»[12].

الخاصية الرابعة:

تتمثل في نزعة الإنسان الاجتماعية التي من أجلها قال علماء الاجتماع عنه: إنه «اجتماعي بطبعه»، أو «مدني بطبعه». والإنسان بحكم هذه النزعة أو الغريزة الاجتماعية أو الدافع الاجتماعي الموروث المتأصل في خلقه وتكوينه لا يستطيع أن يعيش بمفرده، ولا يستطيع الحياة منفصلاً عن المجتمع البشري الذي يعيش في محيطه ولا عن الحياة والأحداث الجارية فيه، بل تجده يسعى على الدوام إلى الاندماج في حياة مجتمعه ـ في حال صحته النفسية، وإلى بناء علاقات مختلفة مع أفراده وجماعاته، وإلى التفاعل مع حياة وثقافة مجتمعه، وإلى التعاون مع أفراده وإلى تحصيل معاشه، وإلى التغلّب على الموارد الطبيعية التي قد تكون محدودة عن طريق الاستغلال الأمثل لها. فالإنسان السوي ـ لهذه النزعة ـ لا يستطيع أن يعيش إلا مجتمعاً مع عدد من بني نوعه، قليلاً هذا العدد كان أم كثيراً وجميع أفراد البشر مشتركون في هذه النزعة الاجتماعية دون استثناء، ولكن بدرجات متفاوتة.

ومن خلال تفاعل الإنسان مع حياة وثقافة مجتمعه يكتسب خبراته المتجددة باستمرار، ويكتسب كثيراً من معارفه ومهاراته واتجاهاته، ويكوّن شخصيته، ويحقق أمنه وحريته، ويشبع كثيراً من حاجاته الأساسية التي ما كان له أن يشبعها لو عاش بمفرده بعيداً عن المجتمع البشري. ومن خلال هذا التفاعل والحياة

(12) كما نقل في المرجع السابق، ص 129-128.

داخل مجتمع، ينتقل الإنسان من مستوى الحياة الحيوانية الغريزية إلى مستوى الحياة الإنسانية الحضارية. فالمجتمع هو الأداة للرقي بالفرد ولرفعه فوق الطبيعة الغريزية المزود بها عند الولادة.

ويرتبط بهذه النزعة الاجتماعية لدى الإنسان، نزعته نحو البناء والتعمير، ومحاولة التغلّب على حدود الموارد الطبيعية المتوفرة له، ومحاولة تغيير الواقع الطبيعي وكشف ما أودع الله في الطبيعة من كنوز ومحاولة تسخيرها لمنفعته ومنفعة مجتمعه، وصنع وتطوير الحضارة الإنسانية. كما يرتبط بتلك النزعة الاجتماعية لدى الإنسان سعة آماله وطموحاته في الحياة، وحبه للمال والتملك، والانتباه والانقياد لما يمس مصلحته الشخصية، والاهتمام بالمستقبل وبضمان هذا المستقبل، والكفاح من أجل تحقيق حياة أفضل، وذلك على خلاف الحيوان الأعجم الذي إذا تحققت غايته بإشباع حاجاته وغرائزه يكتفي ويستريح. والإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يدفع به طموحه إلى المغامرة وركوب المخاطر. ومغامرة الإنسان ناشئة عن إرادته الحرة التي بدونها يصبح شيئاً يباع ويشترى، ولا تكون المغامرة مغامرة حقيقية إلا إذا تضمنت إمكان الخطأ وترجيح الصواب[13].

والإنسان بحكم نزعته الاجتماعية، كما انتج الحضارة الإنسانية في مظهرها المادي، فإنه أنتج أيضاً الثقافة وما تتضمنه من معان ومعتقدات وقيم ـ وعادات وتقاليد وأنماط للسلوك وطرق للتفكير والتعبير وأساليب ونظم للحياة الإنسانية في شتى مظاهرها وجوانبها وما يوجد في هذه الحياة من مؤسسات اجتماعية يتفاعل ويتعامل معها الفرد في حياته.

ولا تعدو الثقافة أن تكون بجميع أنواعها وعناصرها ومكوناتها ومستوياتها، أن تكون نتاجاً للتفاعل الفكري والاجتماعي للإنسان مع أخيه الإنسان ومع البيئة التي يعيش فيها. وما كان للإنسان أن يبني ثقافة وحضارة ويصنع تقدماً في الحياة لولا ما آتاه من عقل وقدرة على التفكير والتدبير، ونزعة اجتماعية، وروح للبحث والكشف والمغامرة، وقدرة على الابداع والاختراع.

والإنسان المسلم ـ وهو يسعى إلى تعمير الكون وبناء الثقافة المعنوية

---

(13) ينظر: د. نجيب محمود، فلسفة وفن. مرجع سابق، ص 77-71.

والحضارة المادية ـ ليس مدفوعا فقط بنزعاته وميوله الاجتماعية والتعميرية، بل هو ينفذ بذلك تعاليم دينه الإسلامي الحنيف التي تحثه على العمل والبناء والتعمير وما يرتبط بذلك من إخاء وتعاون وتراحم وتضامن ونفع عام ورعاية عامة وما إلى ذلك من المعاني الكريمة ذات القيمة الاجتماعية التي يحث عليها الإسلام من خلال كثر من آيات القرآن والأحاديث النبوية الشريفة، وذلك من أمثال:

قوله تعالى: ﴿**وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا**﴾ (القصص/ 77).

وقوله تعالى: ﴿**هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً، فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور**﴾ (الملك/ 15).

وقوله تعالى: ﴿**ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم..**﴾ (البقرة/ 198).

وقوله تعالى: ﴿**إنما المؤمنون أخوة**﴾ (الحجرات/ 10).

وقوله تعالى: ﴿**وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أوردوها...**﴾ (النساء/ 86).

وقوله تعالى: ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان**﴾ (المائدة/ 2).

وقوله ﷺ: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

وقوله ﷺ: «خيركم من لم يترك آخرته لدنياه ولا دنياه لآخرته، ولم يكن كلا على الناس».

وقوله ﷺ: «ما من مسلم يزرع زرعاً أو يغرس غرساً فيأكل منه إنسان أو دابة إلا كتب له به صدقة».

وقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

وقوله ﷺ: «والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه».

وقوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً».

وقوله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، إرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

وقوله ﷺ: «الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله».
وقوله ﷺ: «من أراد منكم أن يبارك له في رزقه، وينسأ له في أثره فليصل رحمه».
وقوله ﷺ: «ليس بمؤمن من شبع وجاره جائع».
وقوله ﷺ: «ليس منا من بات شبعان وجاره جائع».
وقوله ﷺ: «خير الناس أنفعهم للناس».
وقوله ﷺ: «فطوبى لعبد جعله الله مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر».
وقوله ﷺ: كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته».

ومن نصوص التراث الإسلامي ذات الارتباط بهذه الخاصية ما قاله «ابن سينا» في كتابه «الشفاء» من: «أن الإنسان له خواص أفعال تصدر عن نفسه ليست موجودة لسائر الحيوان. وأول ذلك أنه: . . . غير مستغن في بقائه عن المشاركة، ولم يكن كسائر الحيوانات التي يقتصر كل واحد منها في نظام معيشته على نفسه وعلى الموجودات في الطبيعة له. وأما الإنسان الواحد فلو لم يكن في الوجود إلا هو وحده، وإلا الأمور الموجودة في الطبيعة له لهلك أو لشاءت معيشته أشد السوء، وذلك لفضيلته ونقيصة سائر الحيوان. .

الإنسان محتاج إلى أمور أزيد مما في الطبيعة، مثل الغذاء المعمول واللباس المعمول. والموجود في الطبيعة من الأغذية ما لم تدبر بالصناعات، فإنها لا تلائمه ولا تحسن معها معيشته. والموجود في الطبيعة من الأشياء التي يمكن أن تلبس أيضاً فقد تحتاج أن تجعل بهيئة وصفة حتى يمكنه أن يلبسها. وأما الحيوانات الأخرى فإن لباس كل واحد معه في الطباع. . . لذلك يحتاج الإنسان أول شيء إلى الفلاحة، وكذلك إلى صناعات أخرى، لا يتمكن الإنسان الواحد من تحصيل كل ما يحتاج إليه من ذلك بنفسه، بل بالمشاركة، حتى يكون هذا يخبز لذاك، وذاك ينسج لهذا، وهذا ينقل شيئاً من بلاد غريبة إلى ذلك، وهذا يعطيه بإزاء ذلك شيئاً من قريب. . .»[14].

وقد أشار ابن خلدون في مقدمته إلى «أن الاجتماع الإنساني ضروري.

(14) ابن سينا، الشفاء: الطبيعيات، رقم (6) النفس. ص 181.

ويعبّر عن هذا بقولهم: «الإنسان مدني بالطبع»، أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم، وهو معنى العمران...» ويمضي ابن خلدون ليقول في هذا الخصوص: «إن كل واحد من بني البشر يحتاج في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء نوعه ليرد عنه عوادي الوحوش الضواري، وإن اجتماع الأجيال إنما هو للتعاون على تحصيل الغذاء أو المعاش»[15].

وهكذا يتبين من كل ما تقدم، أن الإنسان بحكم نزعته الاجتماعية واستعداداته العقلية أن يتحكم إلى حد كبير في البيئة التي يعيش فيها ويتكيف ويتأقلم معها تكيفاً إيجابياً، بحيث يغيّر ويعد فيها بما يناسب ظروفه ويتلاءم مع حاجاته الحاضرة والمقبلة، وينظم ويطوع نوازعه ورغباته في الوقت نفسه، لتنسجم مع الكيان الاجتماعي العام ومع ما في مجتمعه من قيم وعادات وتقاليد مرعية، مع الاحتفاظ بشخصيته المستقلة وفرديته وذاتيته. فهو في الوقت الذي يحتاج فيه إلى الانتماء إلى جماعة وإلى مجتمع، فإنه يظل على الدوام حريصاً على الحفاظ على شخصيته المستقلة. ومن ثم يمكن القول: بأن النزعة الاجتماعية موجودة في طبع الإنسان جنباً إلى جنب مع النزعة الفردية. وقد اعترف الإسلام بهذه النزعة الفطرية المزدوجة للإنسان (النزعة الاجتماعية والنزعة الفردية) وأكد إرادته ومسؤوليته الخلقية الفردية المستقلة، وذلك كما يتجلى في:

قوله تعالى: ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ (المدثر/ 38).
وقوله تعالى: ﴿وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾ (مريم).
وقوله تعالى: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ (النجم).
وقوله تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ (النجم).

الخاصية الخامسة:

ثم إن الإنسان، كما يمتاز بخلقه من تراب على شكل جميل متميز، وبقدرته على التفكير الإرادي وإدراك المعاني المجردة، وبقدرته على الكلام الإرادي المقصود والتعامل برموز لغوية وبقدرته البيانية، وبنزعته الاجتماعية، فإنه يمتاز

(15) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون. (الجزء) (تحقيق: د. علي عبد الواحد وافي)، القاهرة: لجنة البيان العربي، 1968ص.

أيضاً بنزعته الدينية وميله إلى التدين والإيمان بقوة عليا تسيطر على هذا الكون وبالأمور الغيبية عامة. وهذه النزعة الدينية أو الشعور الديني هو أمر فطري في الإنسان يولد وهو مزود به، وينبع من أصل طبيعته الخلقية ولا يقل في فطريته عن سائر الأحاسيس والمشاعر الإنسانية الأخرى. ويعبر في الوقت نفسه عن حاجة أساسية من حاجات الإنسان التي لا يتم توافقه النفسي ولا سعادته إلا بإشباعها، والتي وجدت منذ بداية وجوده. وستبقى معه ما بقي في هذه الحياة، لا يغيرها ولا يقلل من قيمتها أي تطور أو تقدم في هذه الحياة. فالنزعة الدينية والحاجة إلى التدين أمران فطريان في الإنسان وجدا معه منذ بداية خلقه وسيبقيان معه يلاحقانه ما بقيت الحياة وما دام له عقل يعقل به الجمال والقبح ويميز به بين الخير والشر.

وفي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة كثير من المعاني التي تؤكد فطرية النزعة أو العاطفة الدينية في النفس البشرية، فمن ذلك:

قوله تعالى: ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله...**﴾ الآية (الروم/ 30).

وقوله تعالى: ﴿**وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين**﴾ (الأعراف/ 172).

وقوله تعالى: ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم، لتؤمن به ولتنصرنه. قال: آأقررتم، وأخذتم على ذلكم إصرى؟ قالوا: أقررنا. قال: فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين**﴾ (آل عمران/ 81).

وقوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسّون فيها من جدعاء» (أخرجه البخاري).

وقوله ﷺ في حديث قدسي: «يقول الله عز وجل: إني خلقت عبادي

حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم» (رواه مسلم).

فهذه الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة وغيرها تؤكد فطرية النزعة الدينية للإنسان، بحيث إن الإنسان إذا ما استعمل فطرته السليمة دلته قطعاً على الإيمان بالله الواحد الأحد العليم الخبير القادر الصانع لهذا الكون والمصرف لأموره وجعلته يدرك أنه لا يمكن لأية حركة أو أي عمل أن يحدث في الوجود بدون محرك وموجد له، وأن هذا الكون كله مخلوق لله تعالى الذي لا شريك له ولا شبيه، وأن كل شيء في هذا الكون يدل على وجود الله، بل يدرك أن وجود الله لا يحتاج إلى دليل، لأن الله هو الدليل الذي يستدل به على كل شيء والنور الذي يكشف لنا الأشياء ويدلنا عليها.

وتشير الآية الكريمة السابقة التي اقتبسناها من سورة الأعراف إلى العهد الأزلي الكامن في نفس الإنسان. فمنذ أن أراد الله خلق الكون نادى أرواح البشرية كلها، وأخذ عليها العهد. وكانت واعية بذواتها حاضرة بعقولها، فوعت خطاب الخالق العظيم وأجابت النداء طائعة وهي في مرحلة الذر فاعترفت بالديانة.

ولما كان ذلك العهد الأزلي قد يتعرض للغفلة والنسيان من بني البشر، فقد أرسل الله الرسل إلى الناس لهدايتهم وتوجيههم في حياتهم وتذكيرهم بذلك العهد الأزلي الذي أخذه الله عليهم، وأنزل عليهم كتبه للتبيان والذكرى[16].

وفي مقابل اعتراف الإنسان بالدين والعبودية الكاملة والمطلقة لله تعالى وإيمانه بالله وبجميع المغيبات والمعتقدات التي أمر بها الدين من بعث وحشر وحساب وجزاء أخروي وجنة ونار ورسل لله وكتب سماوية، وما إلى ذلك، منحه الله خلافة الأرض، وطلب منه عمارة الأرض وحَمَّله أمانة التكاليف الشرعية ومسؤولية خلافة الأرض وتعميرها كما تشير بذلك الآيات القرآنية الكريمة المتمثلة في:

قوله تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض

---

(16) ينظر: أحمد فائز، طريق الدعوة في ظل القرآن. (الجزء الثاني)، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1984، ط 4 ص 80-70.

درجاتٍ ليبلوكم فيما آتاكم﴾. آخر سورة الانعام.

وقوله تعالى: **﴿هو الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾** (هود/ 61).

وقوله تعالى: **﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها واشفقن منها وحملها الإنسان...﴾** (الأحزاب/ 72).

وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن الإيمان بالله وبما جاء به الدين الإلهي من عقائد وتعاليم والإقرار بالعبودية الكاملة والمطلقة لله تعالى، فوق ما فيهما من استجابة لنزعة فطرية أو ميل فطري لدى الإنسان ووفاء بالعهد الذي أخذه الله عليه وحمل للأمانة التي تعهد بحملها وامتثال لأوامر الله وتعاليمه التي تضمنتها كتبه وشرائعه التي أنزلها على رسله وأمرهم بتبليغها إلى بني الإنسان من خلقه، فإن فيهما سعادة الإنسان وراحة باله، وتزكية روحه وقلبه، وتقوية نفسه على الجهاد الشاق الطويل في مصارعة قوى الشر، وسموه الروحي والخلقي. كما أنهما أساس كل استقامة في الحياة وكل توازن يسعى إليه الإنسان في حياته بين نوازعه المادية ونوازعه الروحية، وأساس كل عمل صالح يرمي الإنسان من ورائه إلى تحقيق الرضى والاطمئنان النفسي والثقة واليقين وإلى تحقيق صفاء النفس وشفافيتها المرغوبة وإعدادها وتأهيلها لفيض من بركات السماء والرضى الصادق بقضاء الله وقدره وبكل ما يأتي من الله ولمراقبة الله الدائمة في السر والعلن والالتزام بتقواه وامتثال أوامره واجتناب نواهيه والحذر من غضبه ونكاله وعذابه وصيانتها من السقوط والتدهور والانحلال والانهيار واليأس والقنوط ومن التسرع والاندفاع والغرور والتجبر والطغيان.

وقد جاء كثير من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة التي تؤكد قيمة الإيمان والعبودية لله، وتصف الإيمان بأنه النور الذي يضيء معالم الحياة لمن يريد الحياة، في حين أن الكفر ظلمة وانكماش وتحجّر وضيق وقلق وحجاب للروح عن الاستشراف والاطلاع وختم على الجوارح والجوانح، وتبيّن أثر الإيمان بالله والإقرار بالعبودية له في استقرار النفوس واستقامة السلوك، وتذكر الإنسان بالغاية من هذه الحياة وبالحكمة التي خلق من أجلها، وتبين له أن الأمر بالإيمان

بالله وبعبادته كان عاماً في جميع الشرائع والرسالات السماوية وأن كل شيء في هذا الكون يعبد الله بطريقته الخاصة وأن العبادة ليست قاصرة على أداء العبادات والشعائر المعروفة من صلاة وصوم وزكاة وحج وما إلى ذلك، بل تشمل كل عمل يقوم به الإنسان في حياته بقصد تأكيد طاعته وعبوديته لله، كما تشمل فكره ومشاعره، حتى وإن لم تبد للناس، لأن الله يعلم السر وما هو أخفى من السر. وحياة الإنسان كلها، بما فيها فكره ومشاعره وأسراره ينبغي أن تكون لله رب العالمين، بل الموت ذاته عبادة حين يكون لله رب العالمين، أي حين تنفق الحياة في مرضاة الله ويكون الموت على طاعة الله وفي سبيل الله.

ومن هذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الكثيرة يمكن ذكر:

قوله تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ (البقرة/ 256).

وقوله تعالى: ﴿أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس، كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ (الأنعام/ 122).

وقوله تعالى: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام، فهو على نور من ربه﴾ (الزمر/ 22).

وقوله تعالى: ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ذلك هو الفوز العظيم﴾ (الحديد/ 12).

وقوله تعالى: ﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون: ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا، إنك على كل شيء قدير﴾ (التحريم/ 8).

وقوله تعالى: ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرمادٍ اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء، ذلك هو الضلال البعيد﴾ (إبراهيم/ 18).

وقوله تعالى: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق. . .﴾ (الحديد).

وقوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون﴾ (الأنفال/ 3).

وقوله تعالى: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه، ذلك الفوز العظيم﴾ (المائدة/ 119).

وقوله تعالى: ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ (الذاريات/ 56).

وقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ (الأنبياء/ 25).

وقوله تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً، أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وذلك دين القيمة﴾ (البينة/ 5).

وقوله تعالى: ﴿قل: إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾ (الأنعام/ 163).

وقوله تعالى: ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً، لقد أحصاهم وعدهم عداً، وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾ (مريم/93).

وقوله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾ (الأنعام/ 38).

وقوله ﷺ: «المؤمن يحجزه إيمانه» (رواه أبو داود).

وقوله ﷺ في إجابة من سأله عن معنى الإحسان: وهو جبريل «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» (رواه البخاري).

وقوله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير. وليس ذاك لأحد إلا

المؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له».

وقوله ﷺ بشأن توسيع مفهوم العبادة لتشمل كل فعل يقوم به الإنسان طاعة لله: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى» (الحديث، رواه البخاري ومسلم).

وقوله ﷺ أيضاً: «إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها، حتى ما تجعل في فم امرأتك» (رواه البخاري).

الخاصية السادسة:

تتمثل في النزعة الخلقية التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنزعة الدينية، بل تعتبر أثراً من آثارها في نظر الإسلام وفي نظر الفكر الإسلامي الذي يربط بين التدين والتخلّق بالأخلاق الفاضلة، ويربط بالتالي بين الضمير الديني والضمير الخلقي، ويعتبر الخلق الكريم الضمان القوي ـ بعد الإيمان ـ لكل من الفرد والمجتمع ضد عوامل الانحراف والفساد. فالعلم وحده لا ينفع دون عاصم الخلق، والدساتير والقوانين لا تصلح دون وازع الضمير. فالعنصر الخلقي أصيل في مبادىء وتعاليم الإسلام، بل إن بعض الأحاديث النبوية الصحيحة تؤكد أن البعثة المحمدية كانت أساساً لإتمام مكارم الأخلاق. يقول ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وفي السنة النبوية المطهرة كثير من الأحاديث النبوية التي ترفع من قيمة الأخلاق وتؤكد فائدتها في الدنيا والآخرة.

فمن ذلك:

قوله ﷺ: «خيركم إسلاماً أحاسنكم أخلاقاً إذا فقهوا» (رواه البخاري في الأدب المفرد).

قوله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً».

وقوله ﷺ: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن»

(رواه الترمذي وصححه).

وقوله ﷺ: «إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً...» (الحديث ذكره المقدسي في مختصر المنهاج).

وقوله ﷺ في معرض الإجابة عمن سأله عن أكثر ما يدخل الناس الجنة: قال: «تقوى الله وحسن الخلق» (ذكره المقدسي أيضاً في المرجع السابق).

والنبي ﷺ لم يكتف بالدعوة إلى الأخلاق والإشادة بفضلها، بل كان يطبق ما يدعو إليه، وقد بلغ الخلق في شخصه الكريم ﷺ إلى ذروة الكمال. وما خالف ﷺ بين سلوكه وبين ما يدعو إليه، بل كان في قمة الالتزام الخلقي، وحسبه شهادة القرآن الكريم بذلك، في قوله تعالى: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ (القلم/ 4).

ومن حسن حظ الإنسان، أن النزعة الخلقية، وميله للتخلق بالأخلاق الفاضلة وللالتزام بقواعد خلقية معينة ينفذها ويطبقها في حياته، هما من الخصائص الفطرية التي يمتاز بها عن بقية الحيوانات. حتى إنه «لو وجد نفسه طليقاً من كل التزام خارجي لفرض على نفسه أموراً معينة والتزم بها، إرضاء لما في طبيعته من ميل للالتزام! ومن ثم، فالفوضى المطلقة لا وجود لها، ولا يمكن أن توجد، لأنها ليست من طبيعة الإنسان»[17].

واختصاص الإنسان بالنزعة الخلقية، هو ما يؤكده علماء فلاسفة الأخلاق قديماً وحديثاً. فهذا هو الفيلسوف الأخلاقي المسلم: «ابن مسكويه» يقول في كتابه: «تهذيب الأخلاق» في هذا الخصوص:

إن الإنسان هو الذي من بين الموجودات كلها يلتمس له الخلق المحمود والأفعال المرضية، وإن أفعاله وقواه وملكاته التي يختص بها من حيث هو إنسان، وبها تتم إنسانيته وفضائله هي الأمور الخلقية أو الأمور الإدارية التي تتعلق بها قوة الفكر والتمييز.

---

(17) أبو علي أحمد بن محمد مسكويه، تهذيب الأخلاق. (تحقيق: د. قسطنطين زريق)، بيروت: الجامعة الأميركية ببيروت، 1966، ص 11-10.

ولاختصاص الإنسان بالنزعة الخلقية، عرفه فلاسفة وعلماء الأخلاق بأنه: «الحيوان الأخلاقي، أو ذو النزعة الخلقية، أو ذو القدرة على التمييز بين الخير والشر.

والخلق في أبسط معانيه هو عادة أو اتجاه راسخ في النفس تصدر عنه الأفعال بسهولة ويسر وقد عرفه «ابن مسكويه» في كتابه السالف الذكر بأنه: «حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية»[18]. وهو لا يقصد بقوله: «من غير فكر ولا روية» أن العمل الأخلاقي لا يحتاج إلى تفكير وتدبر وروية، لأن الواقع غير هذا، حيث إن العمل الأخلاقي، مهما كان الاتجاه الخلقي راسخاً في النفس، فإنه لا يستغني عن الفكر والتدبّر والروية، بل الذي يقصده من ذلك القيد أن الأفعال الخلقية التي تصدر عن تلك الحال أو الهيئة الراسخة في النفس تصدر بسهولة ويُسر.

ومما يدخل تحت تلك النزعة الخلقية التي يختص بها الإنسان: أن يتوفر لديه إحساس يميّز به بين الخير والشر وبين الحسن والقبيح، وإرادة قوية توّجهه إلى الخير وتقيه من التدني والانحراف والانزلاق إلى مواقع الشر وتهزم فيه نوازع الضعف ووساوس الهوى، وقدرة على ضبط غرائزه ودوافعه ونزواته وشهواته وانفعالاته وعلى إعلائها والسموّ بها وإبدال إشباعاتها من المستوى الحيواني إلى المستوى الإنساني وعلى مقاومة عوامل الشر وهزيمة نوازع الضعف ووساوس الهوى وتجنّب أسباب الانحراف والجريمة والهبوط والتدني وعلى تزكية النفس بالإيمان القوي الصادق بالله واليوم الآخر يوم الحساب والجزاء وبالعبادة المخلصة وبتدريب النفس على الالتزام بتنفيذ أوامر الله واجتناب نواهيه وعلى الالتزام بالأخلاق الفاضلة.

وبالنسبة لتزكية النفس التي تعتبر القدرة عليها أحد المتطلبات الرئيسة للعمل الخلقي السوي، فإنها تكاد تكون مرادفة في معناها لمعنى تحسين الأخلاق وتهذيب الطباع وشد الإنسان إلى أعلى كلما حاولت المثبطات والهواجس أن تسف به. وهي للقلب كالذكاء للعقل.

---

(18) نفس المرجع السابق، ص 31.

يقول تعالى بخصوص تزكية النفس كأحد واجبات الإنسان نحو ربه ونحو نفسه وبخصوص النتائج الطيبة المترتبة عليها: ﴿**ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات، فأولئك لهم الدرجات العلا، جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك جزاء من تزكى**﴾ (طه/ 76-75). ويقول جل شأنه في هذا الخصوص أيضاً: ﴿**ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها**﴾ (الشمس/ 10-7). قال قتادة في تفسير قوله تعالى: «قد أفلح من زكاها»: أي زكى نفسه بطاعة الله وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل. وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: «وقد خاب من دساها»: أي أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصي.

وفي آية قرآنية كريمة أخرى، اعتبرت التزكية إحدى الوظائف الثلاث الأساسية لعمل الرسول ﷺ، وهي: تلاوة آيات الكتاب الكريم، وتزكية النفوس، وتعليم الناس الكتاب والحكمة وما لم يكونوا يعلمونه من قبل. فقال جل شأنه: ﴿**كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا، ويزكيكم، ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون**﴾ (البقرة/ 151).

وكان من بين ما يدعو به النبي ﷺ أن يزكي الله نفسه ويطهرها، فيقول ﷺ، ضمن حديث طويل: «... اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها...» (رواه الأمام أحمد).

ويدخل تحت تزكية النفس وتهذيبها جميع الفضائل الخلقية التي دعا إليها من إيمان قوي بالله عن علم وقناعة، وطاعة صادقة لكل ما أمر الله به وما نهى عنه، ومن عبادة واقية مثمرة تقي صاحبها من ارتكاب المعاصي وتنهاه عن الفحشاء والمنكر «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر»، ومن خوف الله وتقواه في السر والعلن، لأن الله لا تخفى عليه خافية، يعلم السر والعلانية. وصدق الله إذ يقول: ﴿**يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور**﴾ (غافر/ 19). ويقول أيضاً: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد**﴾ (ق/ 16).

ومن أمهات الفضائل الخلقية التي تدخل تحت لواء النزعة الخلقية والتي دعا إليها الإسلام أيضاً: الاستقامة على دين الله وأوامره وحفظ اللسان واستقامته

التي تعتبر شرطاً في استقامة القلب التي هي شرط في استقامة الإيمان. يقول تعالى: ﴿**فاستقم كما أمرت ومن تاب معك، ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير**﴾ (هود/ 12). ويقول ﷺ ما في معناه: «قل آمنت بالله ثم استقم» ويقول ﷺ أيضاً: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولن يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه» (رواه مسلم).

ومن هذه الفضائل أيضاً: الصدق، والأمانة، والإخلاص، ومعاملة الناس بالحسنى والرفق واللّين والرحمة والصبر والقناعة والتواضع والعمل بمقتضى العلم، إلى غير ذلك من الفضائل الخلقية التي تقتضيها النزعة الخلقية والتي حث عليها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة في أكثر من موقع وفي أكثر من مناسبة.

وتكفي الإشارة إلى بعض الأحاديث النبوية الواردة بشأن الحث على فضيلة الحياء والعمل بمقتضى العلم. يقول ﷺ: «إن لكل دين خلقا وخلق الإسلام الحياء» (رواه ابن ماجه). ويقول ﷺ بهذا الخصوص أيضاً: «استحيوا من الله تعالى حق الحياء. من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى» (الحديث رواه أحمد). ويقول ﷺ في تأكيد قيمة العمل بمقتضى العمل: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ماذا عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه» (ذكره البغدادي في اقتضاء العلم والعمل).

وبصدد التأكيد على فضيلة العمل بمقتضى العلم، ينبغي التنبيه إلى أن معرفة الخير أو العلم بأبعاد الفضيلة وبقيمة التمسّك بها في شؤون الحياة لا يستدعي بالضرورة زكاة القلب وحسن الخلق عملياً، لأن النفس الرديئة قد تستغل ما وهب لها من ذكاء وما أتيح لها من اطلاع كي تحقق مآربها الصغيرة.

«وقد وصف القرآن الكريم من تصرعهم الأهواء ويتدلون إلى الحضيض، مع ما أوتوا من معرفة وذكاء، فقال جل شأنه: ﴿**واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه...**﴾ (الأعراف/ 176-175).

إنه لما آثر الهبوط تركه القدر يهوي. ولو أنه جاهد ورغب في التسامي لأخذ القدر بيده وأعانه على الرفعة...»[19].

كما ينبغي التنبيه أيضاً إلى أن الأخلاق في الإسلام ليست فضائل متفرقة، ولا مجموعة من الحكم والمواعظ، ولا أعرافاً قانونية، ولا عادات موروثة، ولا تقاليد منقولة، ولا منافع عاجلة، ولا معاملة بالمثل، بل إنها ـ مثل العبادات والمعاملات ـ مرتبطة بالعقيدة برباط وثيق، موصولة بالإيمان بسبب متين. إنها التطبيق العملي للعقيدة في واقع الحياة. وهي الدليل على تمكّن الإيمان من القلب. فمجرد الإيمان لا يكفي ولا يصبح كاملاً حتى يترجم إلى عمل صالح وأخلاق فاضلة ويطبق عملياً في السلوك.

إن المؤمن حين يصدق إنما يصدق لأن الله تعالى أمره بالصدق، وليس فقط لأن الصدق نافع ومنج له. وهكذا حين يؤدي الأمانة فإنه يؤديها، لأن الله تعالى أمر بذلك، لا خوفاً من الفضيحة والعقوبة العاجلة ولا حرصاً على السمعة الطيبة بين الناس. وهو حين يبتعد عن الفواحش والمنكرات، فإنه لا يبتعد عنها لمجرد الخوف من الناس أو الخشية على مصلحته، وإنما يبتعد عنها بدافع الإيمان بالله والخوف منه، وهو الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ويعلم السر والعلانية[20].

وبقدر ما يملك الإنسان من إيمان قوي بالله ووازع ديني قوي وإرادة قوية تكون قدرته على ضبط نزواته وشهواته وجعلها مذعنة لفكره ومنقادة للوازع الديني لديه ومصرفة بالحس الديني المسيطر على نفسه ومشاعره، فهذا الوازع وهو الحس النابع من الإيمان بالله وتقواه وخشيته واستشعار عظمته والحياء منه أن يراه حيث نهاه فهذا الوازع الديني يفعل في النفوس ما لا يفعله وازع القوة والسلطان، وأن المراقبة الباطنية هي التي تجعل النفس تستسلم لمنهج ربها، فإذا هي تستحي من الله يراها حيث نهاها، وإذا هي خيرة آمنة ترغب في عمل الخير وتعرض عن الشر.

---

(19) محمد الغزالي، «نظرية التربية الإسلامية للفرد والمجتمع»، في: قراءات في التربية الإسلامية. تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إدارة التربية، 1982، ص 24-23.

(20) ينظر كل من: (أ) محمد شديد، الجهاد في الإسلام. (ط 5) بيروت: مؤسسة الرسالة، 1984، ص 67-66. (ب) وهبي الألباني.

ومناط العمل الخلقي لدى الإنسان هي المسؤولية الخلقية التي من شروطها الإرادة الحرة التي تجعل الإنسان يقدم على الفعل أو يمتنع عنه وهو بكامل قصده وحريته واختياره، والعقل السليم والوعي الكامل اللذان يمكنان الإنسان من التمييز بين الأشياء والأفعال ومن الاختيار الحكيم من بين البدائل المتعددة الممكنة للسلوك والتصرف، والقدرة العقلية والعاطفية والبدنية التي تمكن الإنسان من القيام بالفعل المرغوب خلقياً إذا أراده، والاعتقاد الجازم والقيام بالفعل حسب هذا الاعتقاد. وهي الشروط التي توجد المسؤولية بوجودها كلها وتنتفي بانتفائها كلها أو بعضها.

وفي ضوء هذه الشروط، فإنه لا مسؤولية مع عدم القصد، ولا مع الجبر والإكراه على الفعل، ولا مع الجنون أو فقدان الوعي والتمييز أو الضعف العقلي المخل بالتمييز، ولا مع العجز البدني أو العقلي أو النفسي، ولا مع عدم الاعتقاد الجازم. وبتوافر هذه الشروط تتحقق المسؤولية الخلقية ويصبح الإنسان مسؤولاً عن عمله وتصرفاته.

والأدلة والشواهد على هذه الشروط في آيات القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية الشريفة أكثر من أن يتسع المقام لذكرها. وتكفي الإشارة منها إلى ما يلي:

يقول تعالى: **﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾**.

ويقول جل شأنه: **﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم، وكان الله غفوراً رحيماً﴾**.

ويقول عز من قائل: **﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾** (البقرة/ 286).

ويقول جل شأنه: **﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾** (الإسراء/ 15).

ويقول ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى» (الحديث).

ويقول ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

ويقول ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة: النائم حتى يستيقظ، وعن المبتلي حتى يبرأ، وعن الصبي حتى يكبر».

والإنسان في النهاية مسؤول عن أعماله وتصرفاته التي أقدم عليها طائعاً مختاراً. وفي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة كثير من النصوص المؤكدة لمسؤولية الإنسان الفردية والجماعية، وذلك من أمثال:

قوله تعالى: ﴿ولا تكسب كل نفس إلا عليها، ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ (الأنعام/ 164).

وقوله تعالى: ﴿فمن اهتدى، فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، وما أنا عليكم بوكيل﴾ (يونس/ 108).

وقوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها، وما ربك بظلام للعبيد﴾ (فصلت/ 46).

وقوله تعالى: ﴿كل امرىء بما كسب رهين﴾ (الطور/ 21).

وقوله تعالى: ﴿وما ظلمناهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ (النحل/ 118).

وقوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ (الأنفال/ 25).

وقوله تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها، ففسقوا فيها، فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾ (الإسراء).

وقوله ﷺ: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته» (الحديث) (رواه البخاري ومسلم).

وقوله ﷺ: «إن الله لا يعذب الخاصة بذنوب العامة، حتى يرى المنكر بين أظهرهم، وهم قادرون على أن ينكِروه فلا ينكرونه».

وقوله ﷺ: من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[21].

كل هذه الشواهد وكثير غيرها تؤكد مسؤولية الإنسان عن عمله وأنه عليه

(21) ينظر كتابنا: فلسفة التربية الإسلامية.* ص 276-268.

تقع تبعية مصيره. لقد ترك له الخالق جل وعلا حرية الاختيار بين الهداية والنكوص وبين اتباع طريق الخير واتباع طريق الشر بعد أن زوده بنور العقل وإحساس الوجدان، وحمله مسؤولية الأمانة وتحمل أعباء التكاليف الشرعية ومسؤولية حرية الإرادة. يقول جل شأنه في تأكيد هذه المعاني: ﴿**ألم نجعل له عينين، ولساناً وشفتين، وهديناه النجدين...**﴾ (البلد/ 10-8) ويقول جل شأنه أيضاً: ﴿**إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً**﴾ (الإنسان/ 3). ويقول أيضاً: ﴿**إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، إنه كان ظلوماً جهولاً**﴾ (الأحزاب/ 72). ولعل الإنسان هو المخلوق الوحيد المخير بين الإيمان والكفر بنص القرآن الكريم نفسه. يقول تعالى: ﴿**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**﴾ (الكهف/ 29).

وبقدر ما يملك الإنسان من إرادة قوية حرة منحازة إلى فعل الخير والصلاح تكون قيمته وأهليته لتحمل مسؤولية عمله وتبعة اتجاهه ومصيره، وتكون قدرته على ضبط شهواته وعلى التغلب على جوانب الضعف فيه وعلى كبت بعض دوافعه وشهواته التي لا يمكن إشباعها بالطريقة التي يرضى عنها الدين وتتمشى مع قيمه وقواعده الخلقية. فعند الفشل في عمليات التسامي والإعلاء والإبدال لبعض الدوافع، يصبح الكبت أمراً مطلوباً من الإنسان المسلم. فالإنسان المسلم إذا تحركت له رغبة في شيء محرم يأباه الله جل شأنه وجب عليه صد هذه الرغبة إذا ما فشل في توجيهها نحو مشبع مشروع، وإذا تحركت له رغبة في جائز لا يملكه وجب عليه الصبر حتى يملكه. يقول تعالى: ﴿**وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى**﴾ (النازعات/ 40-39) ويقول جل شأنه: ﴿**وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً، حتى يغنيهم الله من فضله**﴾ (النور/ 33).

وعلى الرغم من أن الإسلام لا يرضى عن ظلم الإنسان لنفسه بإسقاط حقها في المتعة المشروعة وبحرمانها من كل ما تشتهيه، فإنه في الوقت نفسه لا يرضى عن الإفراط في إشباع الشهوات، بحيث يصل الإنسان إلى درجة يصعب عليه السيطرة عليها. ويسهل الاحتراز من الوصول إلى هذه المرحلة في بدايات الأمور، لأن آخرها يفتقر إلى علاج شديد، وقد لا ينجح. و«مثاله من يصرف

عنان الدابة عند توجهها إلى باب تريد دخوله. فما أهون منعها بصرف عنانها. ومثال من يعالجه بعد استحكامه: مثال من يتركها حتى تدخل الباب وتجاوزه، ثم يأخذ ذنبها يجرها إلى وراء، وما أعظم التفاوت بين الأمرين»[22].

الخاصية السابعة:

تتمثل في أن الطبيعة البشرية خيّرة في أصل الخلقة وأن الإنسان خيِّر بطبعه، يولد على الخير وبطبيعته خيرة حميدة نقية، ثم قد يطرأ عليه التغيّر بعد ذلك ويفعل الشر بسبب تأثير عوامل البيئة السيئة المحيطة به، وقد يستمر في خيريته الفطرية وينمى الخير الكامن في نفسه. وخيرية الإنسان هذه هي خيرية استعداد في المقام الأول، بحيث إذا وجد هذا الاستعداد الفطري الوسط الخيّر والتربية الصالحة والتوجيه السليم تفتّح وازدهر ونما، كما تتفتح وتزدهر وتنمو الزهرة عندما تتوفر لها أسباب التفتح والازدهار والنماء.

وفطرية الخير في الإنسان لا تعني أن الإنسان لا يفعل الشر، وإنما تعني أن الشر خارج عن طبيعته، فهو عندما يفعله إنما يفعله عن خطأ أو عن جهل أو لتأثير البيئة عليه. كما لا تعني فطرية الخير في الإنسان أنه يولد مسلماً بالفعل، بل الذي تعنيه أنه يولد ولديه استعداد فطري لقبول الإسلام باعتباره دين الحق والدين المساير لروح الفطرة. وإن شئت قلت: إنه يولد مسلماً بالاستعداد.

فهذا الاستعداد الخيّر للإنسان يجعله يختار طريق الحق والخير، حين تترك له حرية الاختيار، ولا يطرأ على استعداه أي تشويه أو تحريف بسبب مؤثرات البيئة والوسط المحيط به. حتى إذا ما عرض على إنسان خالي الذهن وليس عنده هوى سابق أمران أحدهما حق والآخر باطل، فإنه سيميل بفطرته إلى الحق. فلو عرض الإسلام مثلاً، مع عقائد دينية أخرى باطلة على إنسان خالي الذهن وليست عنده مواريث سابقة، فإنه يختار بكل تأكيد الإسلام، لأنه أقرب إلى روح الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ولأن فيه التحقيق الكامل لذات الإنسان والتلبية الكاملة لحاجاته الروحية والنفسية والاجتماعية.

---

(22) أحمد المقدسي، مختصر منهاج القاصدين. مرجع سابق، ص 165.

وكون الإنسان خيراً بطبعه وسوياً بفطرته ومسلماً باستعداده الفطري الذي لم يطرأ عليه ما يفسده، لا يعني أن الإنسان يولد مسلماً بالفعل، لأن الواقع يؤكد أن الوليد البشري لو ترك وشأنه منعزلاً أو ولد في بيئة غير مسلمة لما صار مسلماً[23].

فتحويل الإنسان إلى مسلم بالفعل إنما يكون بعمليات التربية والتنشئة على أساس من تعاليم الإسلام وعمليات تزكية النفس وتهذيبها التي يقوم فيها الآباء والمربون والمحيطون بالفرد ويقوم الفرد نفسه بدور بارز فيها عندما يصل إلى سن التمييز والاختيار، وتتوفر لديه شروط تحمّل المسؤولية واتخاذ القرار الحر المستقل. فصلاح الإنسان يكون بالفطرة السليمة التي لم تنحرف عن الطريق السوي، وبالشريعة المنزلة من عند الله لهداية الإنسان وتدعيم وتكميل ما له من خصائص فطرية خيريّة، وبالتربية الصالحة والتنشئة المستقيمة على تعاليم الدين الحنيف.

والقول بخيرية الطبيعة البشرية، وبأن الإنسان ذو طبيعة خيرّة وأن الشر طارىء عليه ومجاف لفطرته هو أقرب الأقوال ووجهات النظر المتعلقة بقضية الطبيعة البشرية بين الخير والشر إلى روح الإسلام، «وأن يولد خيّراً هو الأمر الذي تقتضيه رحمة الله تعالى وفضله وحكمته. تقتضيه رحمته، لأن الرحمن هو الذي يعطي الخير ابتداءً، كرماً وفضلاً، ثم يجازي على الإحسان إحساناً. فبفضل الله ورحمته خلق الإنسان في أحسن تقويم، وخلق له كل ما يناسب طبيعته ويفي بحاجاته من أرض وسماء وليل ونهار وأنهار وحيوان ونبات.

إن الذي خلق الجسم الإنساني... سوياً معتدلاً وخلق له كل ما يناسبه من غذاء وكساء وهواء وضياء ـ لحري بأن يخلق النفس الإنسانية سويّة، ويسهّل لها كل ما يناسب استواءها الفطري ويكمله من آيات كونية وحجج عقلية وهداية سماوية.

وهو الأمر الذي يناسب حكمته، لأن الحكيم لا يصنع شيئاً لغاية ما، ثم يجعل طبعه غير ملائم لتلك أو غير مهيأ لبلوغها. والله سبحانه وتعالى خلق

---

(23) ينظر: جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم. (الطبعة السادسة)، دمشق: مطبة زيد بن ثابت الأنصاري، 1984، ص 62-60.

الإنسان ليعبده «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون»، فكيف يخلق له نفساً شريرة لا تناسبها العبادة، أو نفساً محايدة بين الخير والشر لا يضيرها أطريق عبادته سلكت، أو سلكت طريق التمرد عليه. كلا، من حكمة الله تعالى في خلقه كله أن يخلقه سوياً، وأن يهدي كل مخلوق إلى ما قدر له أن يخلقه «الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى»[24].

وفي القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة كثير من النصوص التي تدعم وجهة النظر القائلة بخيرية الطبيعة البشرية بصورة صريحة أو ضمنية. فمن ذلك النصوص التالية التي تبين كيف أن الله سبحانه وتعالى ـ فضلاً منه ومنّة ـ أحسن كل شيء خلقه وخلق الإنسان في أحسن تقويم فخلق نفسه سوية مستقيمة، وكيف أن الإقرار بالتوحيد لله تعالى هو ما فطر عليه بنو آدم جيلاً بعد جيل، وأن النفس البشرية لو تركت وأصالتها لما انحرفت عن دين الله الذي أرسل به رسله وأن هذا الدين ليس شيئاً غريباً عن الإنسان، بل إن أصله مغروس في نفسه وأنه لا يولد أي إنسان إلا وهو مستعد لقبوله. كما تبين كيف: أن مادة الوحي التي أنزلها الله على عباده عن طريق رسله عليهم السلام قد باشرت قلب الإنسان المؤمن بها وخالطت بشاشته فازداد نوراً بالوحي على نوره الذي فطره الله تعالى عليه فاجتمع له بذلك نور الوحي إلى نور الفطرة، نور على نور، وأن كلمة التوحيد هي كشجرة طيبة؛ أصلها ثابت في قلب المؤمن وأكلها هو الأعمال الصالحة الناتجة عنها الصاعدة إلى السماء المقبولة عند الله تعالى وأن الكلمة الخبيثة المضادة لكلمة التوحيد لا أصل لها ولا قرار ولا ثمرة زكية، وأن الله خلق عباده حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم وحولتهم عن دينهم، وأن التربية الأولى التي يتعرض إليها الإنسان في بداية نشأته مسؤولة إلى حد كبير على ما يطرأ على الإنسان من انحراف في العقيدة، وأنه على الآباء تقع مسؤولية كبيرة تجاه وقاية أولادهم وأهليهم، وأن كل مولود يولد معتدلاً في اعتقاده سليماً في فطرته، وأبواه هما اللذان ينحرفان به عن الاعتقاد السليم. وهذه النصوص هي:

قوله تعالى: **﴿الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين﴾** (السجدة/ 7).

---

(24) د. جعفر شيخ ادريس، «التصور الإسلامي للإنسان أساس لفلسفة الإسلام التربوية»، مجلة المسلم المعاصر العدد الثاني عشر، (أكتوبر ـ ديسمبر، 1977)، ص 68-67.

وقوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ (التين/ 4).

وقوله تعالى: ﴿ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾ (الشمس/ 10-7).

وقوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا؛ بلى، شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾ (الأعراف/ 172).

وقوله تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً، فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (الروم/ 30).

وقوله تعالى: ﴿الله نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة، زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء، ويضرب الله الأمثال للناس، والله بكل شيء عليم﴾ (النور/ 35).

وقوله تعالى: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون. ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار﴾ (إبراهيم/ 26-24).

وقوله ﷺ: «يقول الله: إني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم» (رواه مسلم).

وقوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة (وفي رواية على هذه الملة)، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسّون فيها جدعاء؟» (رواه البخاري ومسلم).

وفي هذا الحديث الأخير بالذات «دلالة على أن الفطرة التي يولد عليها الإنسان هي السلامة من الشرور، كما أن الحال التي تولد عليها البهيمة هي

السلامة من العيوب الجسمانية من قطع أنف أو أذن أو شفة أو غيرها. فكذلك الحال التي يولد عليها الطفل هي السلامة من العيوب النفسية والاعتقادية من يهودية ونصرانية ومجوسية. وكما أن تلك العيوب تطرأ على البهيمة بعد ميلادها. فكذلك هذه العيوب تطرأ على الإنسان بعد ميلاده.

والدليل على أن الفطرة المقصودة في هذا الحديث ليست السلامة بمعنى الحياد، بل بمعنى وجود الخير في النفس: أنه ﷺ قال: «فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه»، ولم يقل: ويجعلانه مسلماً، لأن الإسلام هو الأمر الطبيعي. وكل هذه العقائد انحرافات عنه وهذا المعنى جاء مصرحاً به في الرواية الأخرى للحديث (كل مولود يولد على هذه الملة)[25].

والخير الذي فطر عليه الإنسان ـ كما توضحه نصوص الدين الإسلامي ـ يشمل فيما يشمل: الاعتراف بعبودية الإنسان لله الخالق الواحد، وإدراك ما في الصدق والأمانة والعدل وشكر النعمة ومقابلة الإحسان بالإحسان وحب الجمال والنظافة والنظام من خير وحسن يرغبان فيها ويجذبان النفس إلى التمسك بها وما في الكذب والخيانة والظلم ومقابلة الإحسان بالإساءة ومساواة المحسن بالمسيء والقبح والقذارة والفوضى من شر ومنافاة للطبع والذوق السليمين.

وينبغي إعادة التنبيه إلى أن أصالة الخير في النفس الإنسانية وكونه مفطوراً على الخير لا يعنيان أن الإنسان مطبوع على إرادة الخير وفعله طبعا لا ينفك عنه، لأن الواقع المشاهد يخالف هذا، حيث إن الواقع يثبت أن الإنسان يفعل الخير وقد يفعل الشر، بناء على إرادة كل منهما. بل الذي يعنيانه: أن الله صاغ الإنسان وكوّنه وركبه بحيث لا يصلح له إلا الخير، وأن الله تعالى قد تفضّل على الإنسان فجعل معرفته بهذه الحقيقة أمراً مستقراً في نفسه، لدرجة أنه لا يحتاج لأن يتعلمه من الخارج، وإن كان التعليم الخارجي يزيد هذه المعرفة قوة وتدعيماً.

إن الفطرة لا تتناقض مع المشيئة الإنسانية، ولا تمنع الإنسان من إرادة ما يخالفها. فقد جعل الله الإنسان مخلوقاً ذا إرادة، إن شاء سار في طريق الخير التي تدله عليه فطرته، وإن شاء تمرد على فطرته كما يتمرد على الدلائل العقلية

---

(25) نفس المرجع السابق، ص 72-71.

والآيات الكونية والرسالات السماوية.

«إن الله تعالى يتفضل فيعرف الإنسان بالخير ويبينه له ويدعوه إليه دعوة تأتيه من داخل نفسه ومن دلائل عقله ومن الآيات الكونية ومن الرسالات السماوية، ولكنه يتركه بعد ذلك حراً، إن شاء قبل هذه الدعوة شاكراً وإن شاء ردها كافراً. وفي معنى هذا البيان الفطري، يقول تعالى:

﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾ (الإنسان/ 3).

﴿ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾ (الشمس/ 10-7)[26].

ووظيفة التربية وفقاً لهذا الرأي أو الاتجاه هي تنمية الروح الخيرة الفطرية في الإنسان، وتمكين الإنسان من أن يكون عبداً صالحاً لله، يخلص في عبادة ربه ويعمّر الأرض الذي استخلفه الله فيها.

ويقابل هذا الرأي أو الاتجاه اتجاهات ووجهات نظر أخرى لها مواقفها الخاصة من «قضية طبيعة الإنسان بين الخير والشر». ويمكن للباحث أن يجدها مبسوطة مع مرتكزاتها وشواهدها في الفكر الإسلامي والفكر الإنساني بصورة عامة. ومن هذه الاتجاهات ووجهات النظر:

الإتجاه الثاني: الذي يقابل الاتجاه الأول ويرى أن الإنسان شرير بطبعه، وأن جذور الشر متأصلة في طبيعته، يولد الشر معه مفروضاً في طبعه، والبيئة بما فيها من عوامل التربية والتهذيب هي التي تهذب طبعه. فالنفس البشرية ـ وفقاً لهذا الاتجاه ـ تنزع بفطرتها إلى نسيان الحق وإلى اتباع الهوى والشهوات والأماني الكاذبة وإلى تحقيق اللذات الذاتية، والبيئة بما فيها من عوامل التربية والإرشاد والتوجيه والتهذيب والإعلاء هي التي تصلح من نفس الإنسان وتخلصها من الشر العالق بها وتقلبها من نفس أمارة بالسوء إلى نفس مطمئنة، وتغيّر بالتالي طباعها وأخلاقها وعاداتها. ولا بد أن تكون هذه التربية وما يرتبط بها من العمليات السالفة الذكر دائمة مستمرة، وذلك حتى لا تعود النفس البشرية إلى ما أودع في

---

(26) نفس المرجع السابق، ص 78.

طبيعتها من صفات مذمومة، ومن نسيان للحق وانسياق وراء الأهواء والشهوات والأماني الكاذبة وتحقيق اللذات النفعية الذاتية.

ومن أنصار هذا الرأي أو الاتجاه أفلوطين المصري ومن تبعه من اليسوعيين وكثير من أقطاب الفكر المسيحي القائلين «بالخطيئة الأصلية» الموروثة من آدم عليه السلام أب البشرية بسبب أكله من الشجرة المنهى عنها، الذي خلق نوعاً من الضعف في ذريته توارثته جيلاً بعد جيل وكان من أنصارها أيضاً بعض الفلاسفة والفنانين وعلماء النفس المحدثين، وذلك من أمثال «هوبز» و«فرويد» ومن سار على منواله في القول بأن الإنسان مجبول على الشر والخطيئة والإثم والعدوان، وأنه يخضع لسيطرة غرائزه البدائية، وأن دافع الجنس هو الدافع الرئيسي الذي يكمن وراء جميع أفعال الإنسان، بما في ذلك حبه لوالديه.

ولأصحاب هذا الرأي أو وجهة النظر أدلتهم التي يستندون إليها. ولكن هذه الأدلة لا ترقى عند الفحص والتدقيق إلى مستوى أدلة وجهة النظر القائلة بخيرية الطبيعة البشرية وبأن الشر أمر طارىء على الإنسان من الخارج بعد ميلاده كما تطرأ عليه أية علة نفسية أو جسمية. فليس في أدلة هذا الاتجاه أو الرأي المتشائم ما يثبت على وجه اليقين أن الشر اللاصق بنفس الإنسان هو لاصق بها قبل الميلاد وأن الشر أحد مكونات طبيعة الإنسان، إذ لو كان الأمر كذلك لكانت أيام الصبا من أشقى أيام حياة الإنسان وأتعسها وأكثرها أمراضاً نفسية، ولكان الإنسان يرتاح نفسياً حين يفعل الشر ويشقى حين يفعل الخير. ولكن الواقع غير ذلك، حيث أن أيام الطفولة هي أحلى أيام العمر، وإن الإنسان إنما يرتاح نفسياً حين يفعل الخير[27].

ودور التربية في ظل هذا الاتجاه ـ كما قدمنا ـ أن تكبح دوافع الشر الطبيعية لدى الإنسان، وأن تحل محلها دوافع خيرة، وأن تبنى لدى الإنسان الإرادة القوية والقدرة على الوقوف أمام جماح النفس وقهرها على عمل الخير بمختلف الوسائل التربوية[28].

---

(27) ينظر نفس المرجع السابق، ص 67-66.

(28) ينظر؛ د. يوسف مصطفى القاضي ود. مقداد يالجن، علم النفس التربوي في الإسلام. الرياض: دار المريخ، 1981، ص 60.

الاتجاه الثالث: في هذه القضية الذي يلي الاتجاه الأول في شهرته وكثرة مؤيديه بين المفكرين والمربين القدماء والمحدثين على حد سواء هو الذي يمثل وجهة نظر الحياد التي تقول بحيدة الطبيعة البشرية بالنسبة لقضية الخير والشر وبأنها مستعدة لأن تكون خيرة أو شريرة، وذلك حسب الوسط الذي تعيش فيه وحسب التربية التي تلقاها.

إن الإنسان حسب هذا الاتجاه أو الرأي ليس فيه خير بالفطرة أو شر بالفطرة على الإطلاق، بل هو مزود باستعدادات متساوية للخير والشر وللهدى والضلال، وأن نفسه تشمل على خاصتين أساسيتين: الأولى النزوع إلى طلب الشهوات والفجور، والثانية المجاهدة في الطريق إلى الله بالإيمان والتقوى والعبادة، وأن البيئة وما فيها من عوامل التربية هي التي تشكل نفس الإنسان وترجح أحد الاتجاهين المستعدة لهما: الاتجاه نحو الخير والاتجاه نحو الشر.

وقد زود الله سبحانه وتعالى الإنسان بالإرادة الحرة وبالقدرة على الاختيار والتمييز بين ما هو خير وما هو شر، وعلى توجيه نفسه إلى الخير أو إلى شر، وذلك حسب ما تشاء إرادته الحرة. وهذه القدرة على التمييز والاختيار قد عبر عنها القرآن الكريم بالإلهام تارة، وبالهداية تارة أخرى، فقال جل شأنه:

﴿**ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها**﴾ (الشمس/ 8-7)، وقال عز من قائل:﴿**إنا هديناه السبيل: إما شاكراً وإما كفوراً**﴾ (الإنسان/ 3)، وقال جل شأنه أيضاً: ﴿**وهديناه النجدين**﴾ (البلد/ 10)، أي طريقي الخير والشر: الأول للنفس المؤمنة والقلب السليم، والثاني لمريض القلب صاحب النفس الأمارة بالسوء، وحسب ما يظهر من هذه الآيات القرآنية الكريمة: أن الإنسان له حرية الاختيار بين طريق الإيمان والخير والتقوى والهدى، وطريق الكفر والشر والفجور والضلال.

ويتوارد على الإنسان عدة خواطر يأتي في مقدمتها خاطر العقل الذي به يتمكن من التمييز بين الخير والشر وبين الحق والباطل، وخاطر الروح الذي يرد على القلب بالحق والطاعة والإخلاص لله تعالى والذي يقول الله تعالى فيه: ﴿**أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه**﴾ (المجادلة/ 2¼). وكذلك

خاطر النفس وخاطر الشيطان اللذان يأمران الإنسان بالنزوغ إلى الشهوات ومتابعة الهوى وارتكاب المحرمات. يقول تعالى في هذين الخاطرين الأخيرين: **﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا، واتبع هواه، وكان أمره فرطاً﴾** (الكهف/ 27). ويقول جل شأنه: **﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً﴾** (البقرة/ 268). ويقول عز من قائل: **﴿فاستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله﴾** (المجادلة/ 19).

وقد مال إلى هذا الاتجاه كثير من الفلاسفة والمفكرين المسلمين القدماء، كان من بينهم ابن سينا، والإمام الغزالي. يقول الإمام الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) مؤيداً هذا الاتجاه ما نصه:

«والصبي أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نقش، ومائل إلى كل ما يحال به إليه. فإن عود الخير وعلّمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب، وإن عوّد الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له. وقد قال الله عز وجل: **﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾** (التحريم/ 6)»[29].

ودور التربية في ظل هذا الاتجاه أن تصنع من هذه الطبيعة المحايدة الطيّعة طبيعة خيرة، وأن توجهها بالطرق والوسائل التربوية المختلفة نحو الخير والغايات الخيّرة باستمرار.

وبجانب هذه الاتجاهات أووجهات النظر الثلاث التي حاولت تحديد موقفها من قضية «الطبيعة البشرية بين الخير والشر»، هناك وجهات نظر أخرى أقل شهرة منها، وذلك من أمثال: وجهة النظر القائلة: إن الإنسان، وإن كان يحمل في نفسه قوى الخير والشر فإنه إلى الخير أميل. ووجهة النظر القائلة: إن بعض الناس أخيار وبعضهم أشرار بالطبع، وفيهم من هو متوسط بين الأمرين. ووجهة النظر القائلة: إن في طبيعة الإنسان جانباً خيراً وآخر شريراً. ومن أنصار هذا الرأي الفيلسوف اليوناني «أفلاطون» الذي يرجع الخير في الطبيعة البشرية إلى

(29) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين. (الجزء الثالث)، القاهرة: مطبعة صبيح.

العنصر الروحي فيها، ويرجع الشر إلى طبيعة النفس الحيوانية الوحشية في الإنسان[30].

الخاصية الثامنة:

تتمثل في أن الإنسان في أي لحظة من لحظات حياته وفي جميع جوانب شخصيته ومظاهر نموه هو نتاج لعاملي الوراثة والبيئة. ويبدأ هذان العاملان عملهما وتفاعلهما منذ بداية عملية التكوين، ثم يستمران في عملهما وتفاعلهما إلى نهاية حياة الإنسان. وهما لتشابك تأثيرهما يعتبر من الصعب جداً أن ينسب الشخص ـ عن حزم ودقة ـ مظهراً من مظاهر النمو أو السلوك إلى أحد هذين العاملين دون الآخر، اللهم إلا في بعض المظاهر الجسمية التي ترجع من غير شك إلى عامل الوراثة كلون الشعر ولون العينين وشكل الوجه وما إلى ذلك، أو في معظم مظاهر السلوك الأخلاقي والاجتماعي التي ترجع إلى تأثير البيئة والوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه الشخص. ولكن النمو الجسمي لا تحدد معالمه دائماً العوامل الوراثية، وكذلك النمو أو السلوك الخلقي والاجتماعي لا تحدد معالمه دائماً العوامل البيئية. فكثيراً ما يتأثر النمو الجسمي بالبيئة، سواء أكانت طبيعية كالمناخ وطبيعة الأرض والموقع الجغرافي أو اجتماعية ثقافية كنظام الأكل وأساليب التنشئة وطرق الوقاية والعلاج، وما إلى ذلك. وكثير من مظاهر السلوك الخلقي والاجتماعي يكون متأثراً باستعدادات وراثية وعضوية ترتبط بالإفرازات الغددية والخصائص المزاجية وحالة الجهاز العصبي، وما إلى ذلك.

وهكذا يمكن القول بالنسبة للنمو العقلي والنمو الانفعالي في الإنسان، فإنهما يتأثران أيضاً بالعوامل الوراثية والبيئية. فهما يرجعان إلى استعدادات وراثية تتأثر في تفتحها ونموها بعوامل بيئية، بحيث يمكن للعوامل البيئية أن تكون حافزة ومسرعة ومساعدة على هذا الفتح والنمو، أو تكون معرقلة ومعوقة له.

وتختلف درجة تأثير كل من عاملي الوراثة والبيئة على الإنسان باختلاف

---

(30) ينظر: يوسف القاضي ومقداد يالجن، علم النفس التربوي في الإسلام. مرجع سابق، ص 64-58.

مظهر النمو أو جانب الشخصية لديه، وباختلاف سنه ومرحلة النمو التي يمر بها. فعامل الوراثة يكون عادة أقوى تأثيراً في مرحلة الطفولة، قبل أن تتسع علاقات الفرد الاجتماعية وقبل أن يتسع مجال بيئته وتتسع دائرة تفاعلاته مع بيئته ودائرة خبراته، في حين يكون تأثير البيئة أقوى عندما يكبر الإنسان وتتسع علاقاته وتتسع دائرة البيئة الطبيعية والاجتماعية التي يتفاعل معها[31].

والإنسان نتيجة لتأثير هذين العاملين في شخصيته وسلوكه تنشأ لديه دوافع وصفات وراثية تنتقل إليه من آبائه وأجداده وأصوله القريبة والبعيدة بطريقة لا تزال غير معروفة على وجه التحديد، على الرغم من كل الاكتشافات والإنجازات العلمية التي تم تحقيقها في علوم الأحياء والوراثة البشرية وعلوم النفس. فالإنسان لا يزال عالماً مجهولاً في كثير من جوانبه الداخلية، خاصة ما يتعلق منها بالروح والنفس. ولا يزال علم الإنسان بحقيقة تكوينه الداخلي محدوداً إلى أبعد الحدود، كما هي الحال بالنسبة لعلمه في كثير من مجالات الحياة. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ الإسراء.

كما تنشأ لدى الإنسان نتيجة لذلكما العاملين حاجات وميول وصفات مكتسبة، يكتسبها عن طريق تفاعله مع عناصر بيئته المادية والثقافية والاجتماعية.

ومما يدخل تحت الدوافع والصفات الوراثية أو التي يغلب عليها الطابع الوراثي: دافع البحث عن الشراب والطعام والكساء والمأوى والجنس وعن الراحة والنوم، ودافع الأبوة والأمومة، والميل إلى التملك وإلى السيطرة من أجل الحياة والبقاء وإلى الحركة والتنقل وتجنب الأذى وتأكيد الذات وحب الاطلاع، والذكاء وما يرتبط به من قدرات عقلية ومواهب فنية، والنزعة إلى الاجتماع وإلى التدين والإيمان بذات عُليا وإلى ضبط الدوافع والنزعات والشهوات بما يمنعها من الإنحراف.

ومما يدخل تحت الحاجات والميول والصفات المكتسبة الحاجات النفسية والاجتماعية المنبثقة عن الدوافع الأولية، وذلك مثل الحاجة إلى الأمن، والحاجة

---

(31) الاتجاهات الحديثة في مفهوم التربية. (الطبعة الثانية)، ليبيا: المنشأة العامة لنشر والتوزيع والإعلان 1982، ص 187-185.

إلى المحبة وإلى التقدير، والحاجة إلى الانتماء، والحاجة إلى الحرية والتعبير، والحاجة إلى النجاح، وصفة اللغة الفعلية التي يتكلمها الإنسان، وما يمتلكه من معارف ومهارات واتجاهات نفسية وعقلية واجتماعية وميول وقيم وعادات خلقية واجتماعية، وما إلى ذلك.

وإذا كانت الدوافع والصفات الوراثية تسمى بالطبيعة الأولى أو الطبيعة الفطرية للإنسان، فإن الحاجات والميول والاتجاهات والعادات المكتسبة تسمى بالطبيعة الثانية أو الطبيعة المكتسبة للإنسان.

والإنسان في سلوكه ومواجهته لمشكلات الحياة إنما يعمل بكامل شخصيته وبكيانه المتكامل الذي تعمل فيه كافة نزعاته وقواه الوجدانية والروحية والعقيلية والبدنية الفطرية والمكتسبة، متعاونة ومترابطة ومتكاملة فيما بينها. فتكامل هذه النزعات والقوى شرط في تكامل شخصية الإنسان وتوازنها. وليتحقق هذا التكامل في شخصية الإنسان وبين مكونات هذه الشخصية، لا بد أن تتعاون دوافع الإنسان وضوابطه الإرادية الفطرية، وأن تنمى هذه الضوابط عن طريق التربية الصالحة والتوجيه السليم للإنسان منذ نعومة أظفاره وعن طريق التحكم في البيئة السيئة وفرض الرقابة الصارمة على الشارع والمدرسة وكافة المؤسسات التي يتفاعل معها النشيء من أجل خلق جيل صالح. إذ بدون التربية الصالحة والبيئة المنضبطة لا يمكن للاستعدادات الوراثية أن تخرج من حيّز الإمكان والقوة إلى حيز الفعل ولا لضوابط الإنسان الإرادية أن تأخذها صورتها الكاملة وتصبح بمثابة الصمام الذي يمنع الانحراف والشطط في أي دافع من الدوافع، ويضع حداً للاندفاع وراء الشهوات، ويوجه الطاقة الحيوية في الإنسان إلى مستويات أعلى وأرفع من مجرد الاستجابة لدفع الغريزة[32].

والإسلام ـ باعتباره دين الفطرة ـ فإنه يعترف بجميع مكونات شخصية الإنسان، الفطري والمكتسب منها، وبأن لكل منهما أهمية خاصة وفائدة في حياة الإنسان، حتى الشهوات لها فائدتها بالنسبة إليه. إذ لولا شهوة المطعم ـ مثلاً ـ لما حصل تناول الطعام، ولولا شهوة الجماع لانقطع النسل، وهكذا. فقد أوجد الله

(32) ينظر: محمد قطب، دراسات في النفس الإنسانية. 1972، ص 210-164.

في الإنسان تلك الدوافع والنزعات والشهوات ليحافظ على ذاته ونسله وكيانه النفسي ولينطلق نشطاً في العمل والإنتاج وعمارة الأرض التي استخلفه الله فيها وكلفه بعمارتها.

وقد جاء في القرآن الكريم كثير من الآيات الكريمة التي تؤكد صراحة أو ضمناً وجود دوافع ونزعات وميول وصفات وراثية لدى الإنسان. فمن ذلك ما يلي:

(أ) ففي بيان عاطفة الإيمان وميل الإنسان إلى الإيمان، فقد جاء في القرآن الكريم:

قوله تعالى: ﴿**وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه**﴾ (الروم/ 33).

وقوله تعالى: ﴿**وإذا غشيهم موج كالظل دعوا الله مخلصين له الدين**﴾ (لقمان/ 32).

وقوله تعالى: ﴿**وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه**﴾ (الزمر/ 8).

(ب) ومما جاء في بيان عاطفة الأبوة والأمومة وما يرتبط بها من حب الأولاد والخوف عليهم:

قوله تعالى: ﴿**هنالك دعا زكريا ربه، قال: رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء**﴾ (آل عمران/ 38).

وقوله تعالى: ﴿**وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم، فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً**﴾ (النساء/ 9).

وقوله تعالى: ﴿**وهو الذي خلقكم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها ليسكن إليها، فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً، فمرت به. فلما أثقلت دعوا الله ربهما: لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين**﴾ (الأعراف/ 189).

(ج) ومما جاء في بيان ميل الإنسان إلى الفرح بالنعمة والجزع واليأس عند زوالها وإلى كثرة النكران للنعمة والإحسان وإلى التضرع إلى الله عند الملمات والبطر والطغيان عند الرخاء والسلامة والاستغناء.

قوله تعالى: ﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور. ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني، إنه لفرح فخور﴾ (هود/ 10-9).

وقوله تعالى: ﴿لا يسأم الإنسان من دعاء الخير، وإن مسه الشر فيؤوس قنوط﴾ (فصلت/ 48).

وقوله تعالى: ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه، وإذا مسه الشر فذو دعاءٍ عريض﴾ (فصلت/ 50).

وقوله تعالى: ﴿وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه، أو قاعداً أو قائماً﴾ (يونس/ 12).

وقوله تعالى: ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه، فيقول: ربي أكرمن. وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه، فيقول: ربي أهانن﴾ (الفجر/ 15-18).

وقوله تعالى: ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ (العاديات/ 3).

وقوله تعالى: ﴿ كلا، إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾ (العلق/ 7).

(د) ومما جاء في بيان الإنسان إلى استعجال الخيرات والملذات:

قوله تعالى: ﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم، فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون﴾ (يونس/ 11).

وقوله تعالى: ﴿ويدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير، وكان الإنسان عجولاً﴾ (الإسراء/ 11).

وقوله تعالى: ﴿وخلق الإنسان من عجل، سأريكم آياتي فلا تستعجلون﴾ (الأنبياء/ 37).

وقوله- تعالى؛ ﴿كلا بل تحبون العاجلة، وتذرون الآخرة﴾ (القيامة/ 19-20).

(هـ)ومما جاء في بيان ميل الإنسان إلى التملك والاقتناء والادخار والتميّز

والظهور ومكابدة الدنيا والبخل:

قوله تعالى: ﴿وتحبون المال حباً جماً﴾ (الفجر/ 20).

وقوله تعالى: ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾ (العاديات/ 8).

وقوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ (البلد/ 4).

وقوله تعالى: ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ (النساء/ 127).

وقوله تعالى: ﴿قل: لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذن لأمسكتم خشية الانفاق، وكان الإنسان قتوراً﴾ (الإسراء/ 100).

وقوله تعالى: ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً: إذا مسه الشر جزوعاً، وإذا مسه الخير منوعاً﴾ (المعارج/ 21-19).

(و) ومما جاء في بيان ضعف الإنسان وميله إلى التلذذ الجنسي وشغفه بالخصومة والجدل:

قوله تعالى: ﴿يريد الله أن يخفف عنكم، وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ (النساء/ 27).

وقوله تعالى: ﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾ (يوسف/ 53).

وقوله تعالى؛ ﴿خلق الإنسان من نطفة، فإذا هو خصيم مبين﴾ (النحل/ 4).

وقوله تعالى: ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾ (الكهف/ 54).

إلى غير ذلك من الآيات القرآنية الكثيرة التي أشارت صراحة أو ضمناً إلى ما يوجد في الإنسان من دوافع ونزعات وميول وصفات فطرية والتي لا يتسع المقام لذكرها. وقد زادتها آثار السنة النبوية المطهرة وآثار السلف الصالح وأقوال علماء المسلمين ومفكريهم توضيحاً وتفصيلاً[33].

---

(33) ينظر كل من: (أ) كتابنا: فلسفة التربية الإسلامية. ص 105-96.

(ب) يوسف القاضي ومقداد يالجن، علم النفس التربوي في الإسلام. ص 56-20.

الخاصية التاسعة:

تتمثل في الفروق الفردية الواسعة بين بني الإنسان في كثير من صفاتهم وسماتهم. فهم، وإن تشابهوا بينهم في كثير من الخواص والصفات، وذلك بحكم انتمائهم إلى نوع إنساني واحد، وبحكم الرابطة الإنسانية التي تربط بينهم برباط واحد وتميزهم عن سائر المخلوقات الأخرى، وبحكم الثقافة والحضارة المشتركة التي يعيشون فيها- فإنهم يختلفون فيما بينهم في كثير من صفاتهم وسماتهم الشخصية، نتيجة لاختلاف العوامل والمؤثرات الوراثية والبيئية التي يخضعون لتأثيرها منذ بداية تكوينهم، ثم تستمر في تأثيرها عليهم حتى آخر حياتهم، محدثة فروقاً فردية بينهم في مختلف جوانب شخصياتهم وجوانب نموهم.

فالأفراد يختلفون فيما بينهم، نتيجة لعوامل الوراثية والبيئية التي يتعرضون لتأثيرها، في كثير من صفاتهم الموروثة والمكتسبة. فهم يختلفون في بصمات أصابعهم، وفي قواهم وقدراتهم الجسمية وصحتهم البدنية، وفي ألسنتهم وألوانهم، وفي قواهم وقدراتهم الحاسية والعقلية، وفي استعدادهم ومواهبهم وفي مستويات ذكائهم وقدراتهم العقلية الطائفية الخاصة، وفي مستويات تحصيلهم العلمي والمعرفي، وفي دوافعهم ونزعاتهم ورغباتهم وحاجاتهم وميولهم واتجاهاتهم وسماتهم النفسية والاجتماعية، وفي درجة قوة إرادتهم وصبرهم وعزيمتهم وقوة احتمالهم، وفي درجة إحساسهم الديني وشفافيتهم الروحية وإيمانهم وتقواهم وضميرهم الديني والخلقي، وفي معتقداتهم ووجهات نظرهم في الحياة، وفي أهدافهم وفي الطرق التي يسلكونها لتحقيق أهدافهم، وفي غير ذلك من الصفات والسمات والمكونات لشخصياتهم.

وهذه الاختلافات بين الناس هي ما يسمى في العلوم النفسية والتربوية بالفروق الفردية بين الناس. وهي أمور طبيعية يؤكد وجودها بين الناس الملاحظة العابرة، والملاحظات العلمية المنضبطة، والأبحاث والتجارب العلمية العديدة التي أجريت حول هذا الموضوع، ونتائج ومعطيات اختبارات الشخصية واختبارات الميول والاتجاهات واختبارات الذكاء والتحصيل المعرفي واختبارات القدرات العقلية الخاصة من قدرة ميكانيكية وقدرة لغوية وكتابية وقدرة فنية وما إلى ذلك.

وإلى هذه الفروق الفردية يرجع الفضل في جعل كل إنسان يشعر بأنه عالم قائم بذاته، وبأن له شخصيته المستقلة وطابعه الخاص وشكله المتميز عن غيره من أفراد نوعه، وذلك على الرغم من مشاركته إياهم في خواص النوع الجوهرية التي لا تختلف على القول الأصح باختلاف الأفراد من حيث نوعها، وإن كانت تختلف من حيث مقدارها ونسبتها ودرجة تمكنها. فالناس إذا كانوا يختلفون في طولهم ووزنهم ولون بشرتهم ومستوى ذكائهم وقدراتهم العقلية ومهاراتهم وأنماط شخصياتهم وسماتهم النفسية، فإنهم إنما يختلفون فيما بينهم في درجة وجود أي صفة أو سمة من السمات السابقة. «فكأن الاختلاف اختلاف كمي، وليس اختلافاً نوعياً. فكل فرد له طول، لكنه يختلف في درجة هذا الطول عن غيره من الأفراد. كما أن له وزناً، وهو يختلف عن غيره في درجة هذا الوزن. فإذا كان لدينا عدد كبير من الأفراد فإنه يمكننا ترتيبهم تنازلياً بالتدريج حسب الطول أو حسب الوزن أو حسب أي سمة من السمات»[34].

ونتيجة لهذه الفروق الفردية بين الناس، فإنه يمكن تقسيمهم عدة تقسيمات حسب مستويات ذكائهم وقدراتهم العقلية وحسب أنماط شخصياتهم، وحسب خصائصهم في الاستجابة للتفاعل مع الآخرين، وحسب اعتبارات أخرى كثيرة لها ارتباط بصفاتهم وسماتهم المختلفة وتكوينهم النفسي والمزاجي وغير ذلك من النواحي التي يختلفون فيما بينهم فيها.

(أ) فيمكن تقسيم أفراد النوع البشري حسب مستويات ذكائهم وقدراتهم العقلية ـ مثلاً ـ إلى عباقرة وموهوبين ومرتفعي الذكاء، ومتوسطي الذكاء، ومنخفضي مستوى الذكاء. ونفس منخفضي مستوى الذكاء يمكن تقسيمهم حسب معامل ذكائهم وعمرهم العقلي إلى عدة فئات. فمنهم الغبي، ومنهم ضعيف العقل، ومنهم المورون، ومنهم الأبله، ومنهم المعتوه. وكل فئة من الفئات السابقة لها خصائصها ومعامل ذكائها.

(ب) ويمكن تقسيم الأفراد حسب أنماط شخصياتهم إلى الأنماط الأربعة التالية:

---

(34) سعد جلال، المرجع في علم النفس. القاهرة: دار المعارف بمصر، 1971، ص 387.

1 ـ الأنماط المزاجية.

2 ـ الأنماط الجسمية.

3 ـ والأنماط النفسية.

4 ـ والأنماط الاجتماعية التي يدخل تحتها أنماط فرعية أخرى كـالنمط العلمي، والنمط المبتكر، والنمط الفني والنمط الديني.

(ج) ويمكن تقسيم الأفراد حسب خصائصهم في الاستجابة للتفاعل مع الآخرين إلى الفئات الثلاث التالية:

1 ـ الفئة الإيجابية التي تتميز بالرغبة في الالتقاء بالناس والتفاعل والتعاون معهم.

2 ـ الفئة النافرة التي يتميز من يندرج تحتها بالنفور في استجابته للتفاعل مع الآخرين، وبالرغبة في العدوان والمنافسة والسعي وراء القوة والسيطرة والنفوذ بأي وسيلة.

3 ـ والفئة السلبية التي يتميز أفرادها بالرغبة في العزلة والانطواء، وبتجنب الاتصال والارتباط بالآخرين[35]. وينبغي التنبيه مرة أخرى إلى أن وجود فروق فردية بين الناس في هذه الصفات والسمات لا تعني أن هذه الصفات والسمات موجودة في شخص ومعدومة في شخص آخر، بل هي موجودة لدى الجميع، لكن بدرجات ونسب متفاوتة. فهم في الحقيقة إنما يختلفون في درجة وجودها لديهم.

ووجود الفروق الفردية بين الناس لا يعني أن نحاول القضاء على هذه الفروق بقدر ما يعني العمل على الاستفادة منها في إثراء حياة المجتمع وتقدمه وتوجيه وتربية كل فرد بما يتمشى مع خصائصه وإمكاناته الفردية. وإذا كانت بعض هذه الفروق الفردية تغلب عليه الصفة الوراثية، وبعضها يتأثر بصورة أكثر بالبيئة والظروف الاجتماعية المحيطة بالفرد، ومعظمها يتداخل فيه عاملا الوراثة والبيئة ـ «فإن إمكانية التحكم في هذه الفروق يأتي من ناحية العوامل البيئية التي يمكن أن نخضعها للتغيير والتأثير في الصفة المراد تعديلها تبعاً للتغير الحادث، أكثر منه من ناحية العوامل الوراثية التي يصعب في أغلب الأحوال التحكم فيها

(35) ينظر: كتابنا: فلسفة التربية الإسلامية. ص 108-106.

وإخضاعها للتغيير أو التبديل»[36].

ونحن إذا ما رجعنا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وآثار السلف الصالح من علماء ومفكري الإسلام، فإننا نجد فيها الكثير من النصوص التي تؤكد الاعتراف بخاصية ومبدأ الفروق الفردية بين البشر وفي طريقة معاملتهم وتربيتهم. فتعاليم الإسلام ومعطيات الفكر الإسلامي تبين بوضوح أن للإنسان «فرديته» المتميزة بجانب «اجتماعيته»، وأن كل إنسان عالم وحده. وقد تلقى المفكرون المسلمون الفروق الفردية بين أفراد البشر باهتمام بالغ وقبول حسن، ونادوا بمراعاتها في تعليم المتعلمين وتربيتهم وتوجيههم وفي مخاطبة الناس ومعاملتهم. وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «وخاطب الناس على قدر عقولهم». كما ربط أولئك المفكرون المسلمون تقدم العمران وصلاح الحياة وسعادة الناس وخيرهم بالمحافظة على تلك الفروق الفردية، كما ربطوا شقاءهم وهلاكهم بإزالة تلك الفوارق الطبيعية. يقول الإمام علي رضي الله عنه في تأكيد هذا المعنى: «لا يزال الناس بخير ما تفاوتوا، فإذا استووا هلكوا».

والمتصفح للقرآن الكريم بالذات يجد فيه العديد من الآيات الكريمة التي تؤكد وجود فروق فردية بين بني البشر في ألسنتهم وألوانهم، وفي مقدار علمهم وإيمانهم، وفي درجة تقواهم ودرجة احتمالهم للمشاق والمصائب ودرجة تحملهم لمسؤوليات التكاليف الشرعية، وفي حظوظهم من القوة البدنية ومن الرزق ومتاع الدنيا وفي مقاماتهم ودرجاتهم في الدنيا والآخرة. فمنهم العربي ومنهم الأعجمي، ومنهم الأبيض ومنهم الأسود ولكن «لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى». ومنهم العالم ومنهم الجاهل، ومنهم المؤمن الصادق ومنهم الكافر المنافق، ومنهم التقي ومنهم الفاجر، ومنهم المحسن ومنهم المسيء، ومنهم الشاكر لنعم ربه ومنهم الكافر بها، ومنهم الصابر عند الابتلاء بالمصائب ومنهم الجازع عند تعرضه لأدنى مصيبة، ومنهم المقدر للأمانة التي يكفل يحملها ولتكاليف الدين الذي آمن به والتزم بما ألزم به، ومنهم من هو أقل تقديراً وتحملاً وقدرة على تحمل المسؤوليات والتكاليف، ومنهم قوي البدن ومنهم

(36) د. ابراهيم وجيه محمود، الفروق الفردية في القدرات العقلية. ليبيا: منشورات الجامعة الليبية، 1973، ص 13-12.

ضعيفه، ومنهم الغني ومنهم الفقير، ومنهم ذو المقام الأعلى في الدنيا والآخرة ومنهم من هو دون ذلك في المقام والدرجة، إلى غير ذلك من النواحي التي يختلف الناس فيها قوة ودرجة، كما ورد في القرآن الكريم صراحة أو ضمناً. وأكثر الناس فضلاً في الإسلام هم أقواهم إيماناً بالله، وأشدهم تقوى له، وأكثرهم شكراً لنعمائه وصبراً على ابتلاءاته والتزاماً بأوامره ونواهيه، وأكثرهم حظاً من العلم النافع المرتبط بالعمل ومن القوة البدنية والمعنوية المحصنة بالدين والخلق القويم، وأكثر إحساناً وتأدية لما عليهم من واجبات في أموالهم.

ومن هذه الآيات القرآنية الكريمة التي تؤكد وجود مثل تلك الفروق الفردية بين بني الإنسان:

قوله تعالى: **﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات للعالمين﴾** (الروم/ 21).

وقوله تعالى: **﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** (الحجرات/ 13).

وقوله تعالى: **﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾** (المجادلة/ 11).

وقوله تعالى: **﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والـذين لا يعلمون﴾** (الزمر/ 8).

وقوله تعالى: **﴿وقال لهم نبيهم: إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً، قالوا: أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال. قال: إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم، والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾** (البقرة/ 247).

وقوله تعالى: **﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين﴾** (هود/ 118).

وقوله تعالى: **﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض، ورفع بعضكم فوق بعض درجات، ليبلوكم في ما آتاكم﴾** (الأنعام/ 165).

وقوله تعالى: ﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق..﴾ (النحل/ 71).

وقوله تعالى: ﴿قل أن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (سبأ/ 36).

وقوله تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾ (الزخرف/ 32).

وقوله تعالى؛ ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾ (الإسراء/ 21).

الخاصية العاشرة:

تتمثل في مرونة الطبيعة البشرية وقابليتها للتشكيل بأشكال مختلفة، وللتعليم والتغيّر والتعديل، ولاكتساب معارف ومهارات وعادات واتجاهات وقيم وأخلاق جديدة، وللتخلي عن المعارف والعادات والاتجاهات والقيم والأخلاق القديمة، وذلك عن طريق التعليم والتوجيه وعمليات التنشئة الاجتماعية والتفاعل المستمر الحادث بين الفرد وبين البيئة المادية والثقافية والاجتماعية التي يعيش فيها، وعن طريق إرسال الرسل بالرسالات السماوية المتضمنة لتعاليم الله ووصاياه وأوامره ونواهيه إلى خلقه.

وأساس هذه المرونة في طبيعة الإنسان وشخصيته من الناحية الفسيولوجية ـ هو الجهاز العصبي الذي يسيطر على أجهزة الجسم المختلفة لضبط وتكييف وتنظيم العمليات الحيوية المختلفة الضرورية للحياة، والذي يعتبر أهم وسائل تكامل الكائن الآدمي وقيامه بوظائفه كوحدة متكاملة متضامنة. وبفضله يستطيع الجسم أن يتفاعل مع بيئته الداخلية والخارجية. ويتكون هذا الجهاز العصبي من عدد هائل من الخلايا العصبية، أوصله العلماء إلى حوالي عشرة بلايين «خلية عصبية» Neuron. وهي على خلاف خلايا الجسم الأخرى لا تعوّض. «إذ أن الإنسان يولد مزوداً بكافة خلاياه العصبية التي ستبقى في جسمه دون زيادة حتى نهاية حياته. فإذا ما تعرضت إحدى خلاياه العصبية للتلف لن تنشأ خلية عصبية جديدة لتحل محلها».

والخلايا العصبية التي يتكون منها الجهاز العصبي للإنسان يمكن تقسيمها حسب وظائفها الرئيسة إلى الأقسام أو الفصائل الخمس التالية:

(أ) خلايا عصبية مستقلة: وهي خلايا حسية تختص باستقبال المعلومات من البيئة الخارجية.

(ب) خلايا عصبية توصيلية: للنقل والتوريد، وتقوم بنقل المثيرات من النيورون المستقل إلى الحبل الشوكي.

(ج) خلايا عصبية واصلة: أو مركزية توصل ما بين خلايا الحس وخلايا الحركة.

(د) خلايا عصبية مصدرة: وهي خلايا حركية تنقل الإثارة من الحبل الشوكي إلى العصب الحركي. فهو عصب ناقل أو مصدر.

(هـ) خلايا عصبية فاعلة أو مؤثرة، وهي تعصب العضو. وهي مسؤولة عن الاستجابة[37].

ولعل ما يهمنا في هذه الخلايا العصبية أو الأعصاب هو علاقتها بتكوين العادات والاستجابات المكتسبة وتأثرها بالمران والتكرار اللذين يقويان الرابطة بين المثير والاستجابة ويولدان بالتالي العادات، حتى إذا انقطع التكرار لمدة طويلة بدأت الرابطة بين المثير والاستجابة تضعف، خاصة بين المثير الشرطي والاستجابة الشرطية، وبدأت عملية الانطفاء تعمل عملها.

وبالنسبة لعلاقة التكرار بتكوين العادات بالذات، فإن تكرار القيام بعمل من الأعمال يسهله ويزيد في الميل إليه، حتى يصبح هذا الميل عادة. وللعادات أثر عظيم في حياة الإنسان الجسدية والخلقية والسلوكية. وقد ثبت أن 99% من أعمال الإنسان ليست إلا عادات آلية. ولذا قال بعض العلماء: «إن العادة طبيعة ثانية».

---

(37) ينظر: د. كاظم ولي آغا، علم النفس الفسيولوجي. بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1981، ص 55-15، 262-257.

ولكن مهما رسخت العادات والاتجاهات والعواطف يمكن تعديلها، مع الاعتراف بأن هذا التعديل قد يكون صعباً، إذا وصل الاتجاه أو العاطفة أو العادة إلى درجة الرسوخ ومر على ممارستها وتكرارها زمن طويل.

وسهولة أو صعوبة هذا التعديل أو التغيير في الصفات المكتسبة للإنسان تختلف بحسب عمره وبحسب درجة رسوخ هذه الصفات وبحسب فاعلية الوسائل والأساليب المتبعة في ذلك التعديل أو التغيير.

وأهم عامل يكمن وراء إمكانية تعديل وتغيير عادات وأخلاق واتجاهات الإنسان المكتسبة هو ما تمتاز به طبيعة هذا الإنسان من مرونة ومطاوعة وقابلية للتعديل والتغيّر والتعلّم.

وقد أدرك علماء المسلمين ومفكروهم هذه الحقيقة، فقال جمهورهم بإمكانية تغيير وتعديل خلق الإنسان وعاداته واتجاهاته المكتسبة، مهما كانت درجة رسوخها.

وكان من بين هؤلاء العلماء والمفكرين الإمام الغزالي الذي قال بإمكانية تغيير خلق الإنسان، واستدل على ذلك بأدلة نقلية وعقلية. كان من بين الأدلة النقلية التي استدل بها قوله ﷺ: «حسنوا أخلاقكم». فلو لم يكن تغيير الخلق الذي هو عادة أو هيئة راسخة في النفس، أمراً ممكناً لما أمر به النبي ﷺ. ولو امتنع تغيير الخلق لبطلت الوصايا والمواعظ ولفقد الترغيب والترهيب جدواهما.

ومن أدلة الغزالي العقلية على إمكانية هذا التغيير أنه: إذا كان تغيير خلق البهائم أمراً ممكناً فإن تغيير خلق الإنسان يكون ممكناً من باب أولى، وذلك لتمتع الإنسان بالعقل والإرادة الحرة. وتغيير الخلق يكون بالتربية والمجاهدة والرياضة بالأعمال الصالحة. «فمن أراد مثلاً أن يحصل لنفسه على خلق الجود، فطريقه: أن يتكلف تعاطي فعل الجود، وهو بذل المال، ولا يزال يواظب عليه حتى يتيسر عليه فيصير بنفسه جواداً...

وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع، وغلب عليه التكبر، فطريقه في المجاهدة أن يواظب على أفعال المتواضعين مواظبة دائمة على التكرّر،

مع تقارب الأوقات[38].

وقد اقتفى أثر الإمام الغزالي في القول بإمكانية تغيير عادات الإنسان وأخلاقه كثير من علماء المسلمين الذين أتوا بعده. فهذا هو الإمام أحمد المقدسي (ت 742 هـ/ 1341 م) يؤكد نفس ما قاله الإمام الغزالي، وذلك عندما قال في كتابه: مختصر منهاج القاصدين:

«... المراد بالخلق الصورة الظاهرة، والمراد بالخلق الصورة الباطنة، وذلك أن الإنسان مركب من جسد ونفس... وقد زعم بعض من غلبت عليه البطالة فاستثقل الرياضة أن الأخلاق لا يتصور تغييرها، كما لا يتصور تغيير صورة الظاهر.

والجواب: أنه لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لم يكن للمواعظ والوصايا معنى. وكيف ينكر تغيير الأخلاق ونحن نرى الصيد الوحشي يستأنس، والكلب يعلّم ترك الأكل، والفرس تعلم حسن المشي وجودة الانقياد، إلا أن بعض الطباع سريعة القبول للصلاح وبعضها مستصعبة.

وأما خيال من اعتقد أن ما في الجبلة لا يتغير، فاعلم أنه ليس المقصود قمع هذه الصفات بالكلية، وإنما المطلوب من الرياضة رد الشهوة إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط. وأما قمعها بالكلية فلا. كيف، والشهوة إنما خلقت لفائدة ضرورية في الجبلة. ولو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، أو شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه. وقد قال الله تعالى: ﴿أشداء على الكفار﴾ (الفتح/ 29). ولا تصدر الشدة إلا عن الغضب. ولو بطل الغضب لامتنع جهاد الكفار. وقال تعالى: ﴿والكاظمين الغيظ﴾ (آل عمران/ 134)، ولم يقل: الفاقدين الغيظ...

واعلم أن هذا الاعتدال تارة يحصل بكمال الفطرة منحة من الخالق: فكم من صبي يخلق صادقاً سخياً حليماً. وتارة يحصل بالاكتساب، وذلك بالرياضة، وهي حمل النفس على الأعمال الجالبة للخلق المطلوب. فمن أراد تحصيل خلق

(38) ينظر: أبو حامد الغزالي، ميزان العمل. (تحقيق: د. سليمان دنيا)، القاهرة: دار المعارف بمصر، 1964، ص 287-232.

الجود فليكلف فعل الجواد من البذل ليصير ذلك طبعاً له. وكذلك من أراد التواضع تكلف أفعال المتواضعين. وكذلك جميع الأخلاق المحمودة فإن للعادة أثراً فيها... إلا أنه لا ينبغي أن يطلب تأثير ذلك في يومين أو ثلاثة، وإنما يؤثر مع الدوام، كما لا يطلب في النمو علو القامة في يومين أو ثلاثة، وللدوام تأثير عظيم...[38].

وفي إرسال الرسل أقوى دليل على إمكانية تغيير معتقدات الناس وأخلاقهم وعاداتهم. وقد استطاع الإسلام ـ كدين سماوي ـ أن يحدث تغيّراً جذرياً شاملاً في شخصية الإنسان العربي، حتى لكأنه خلق خلقا جديدا. فقد حوله من الكفر والوثنية وعبادة الأصنام إلى التوحيد والإيمان وعبادة الواحد القهار، ومن التعلّق بالمنافع العاجلة إلى السعي وراء الحصول على رضوان الله ومثوبته في الآخرة، ومن تحكيم السيف في كثير من أمور حياته دون تفكير إلى المسالمة وهدوء الطبع والدفاع عن نفسه عند الاعتداء عليه، ومن منطق القوة إلى منطق الحق والشريعة والنظام، ومن النهب إلى الأمانة، ومن الثأر إلى القصاص، ومن العصبية القبلية إلى التسامح والمسؤولية الشخصية، ومن امتهان المرأة إلى تكريمها وإجلالها، ومن الإباحية إلى العفة والطهر[39].

وما كان ليتم هذا التغير الجذري في شخصية الإنسان العربي لو لم يتميز الإنسان عموماً بمرونة طبيعته واستعداده للاستجابة لمؤثرات التنشئة الاجتماعية وجهود التطبيع الاجتماعي التي تبذل معه منذ الصغر من قبل الكبار المحيطين لإكسابه اتجاهات وقيماً ومقومات الشخصية المرغوبة المناسبة للمجتمع الذي يعيش فيه. واستعداده أيضاً للاستجابة لمؤثرات البيئة عموماً، وللتعلّم والتربية المستمرين باستمرار الحياة، وللتكيف مع الظروف المتغيرة في الحياة، وللنمو والترقي في مدارج الكمال البشري النسبي عن طريق الإيمان والندم على ما فات من تفريط والاستغفار والتوبة وعقد العزم على إصلاح ما بقى من الحياة، وعن طريق العبادة ومجاهدة النفس ومصاحبة أهل الخير. فالنفس البشرية قابلة للنمو

---

(38) أحمد المقدسي، مختصر منهاج القاصدين. مرجع سابق، ص 152-150.

(39) ينظر: د. أحمد شلبي، المجتمع الإسلامي. (ط 3)، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1967، ص 53-39.

والارتقاء في سلم الكمال البشري حتى تبلغ أقصى الكمال الذي قدره الله لها في هذه الحياة، وذلك إذا ما وجدت البيئة الصالحة التي تسهل عليها بلوغ تلك الغاية وتساعدها على استخراج أفضل ما بها من استعدادات ومواهب خيرة ونافعة.

وعلينا أن نعود إلى ما ورد من إشارة خفية في النص السابق الذي نقلناه من كلام المقدسي إلى أن الصفات الجبلية أو الفطرية لا تقمع ولا تستأصل وإنما توجه نحو الاعتدال، لنؤكد أن هذا الاعتدال هو ما يسميه علماء النفس المحدثون بالتسامي والإعلاء للغرائز والدوافع الفطرية. فالغرائز الفطرية ـ مثل غريزة الخوف وغريزة الغضب وغريزة المقاتلة وما إلى ذلك ـ لا يمكن استئصالها أو القضاء عليها كلية، بل كل ما يمكن عمله إزاءها هو تعديلها وتهذيبها وإعلاؤها.

«وتعديل الغريزة معناه أن تستبدل الغريزة بمثيراتها الطبيعية مثيرات أخرى تتجه بالغريزة إلى السمو والكمال وتدع بها الغريزة سلوكها الفطري إلى سلوك فيه النضج والقوة للفرد والخير والصلاح للجماعة...

ومن أهم الوسائل لتعديل الغريزة نشوء العواطف المثالية لدى الفرد، وأقوى هذه العواطف العاطفة الدينية.

فإذا نشأت هذه العاطفة لدى فرد، فإننا نجد أن غريزة الخوف لديه ـ مثلاً ـ لم يعد يثيرها ما يخافه الناس من القتل والظلم والتعذيب، بل يثيرها شيء واحد هو سخط الله جل شأنه وعدم رضاه عن التقصير في بذل النفس في سبيله...

وكذلك غريزة الغضب لا تفقد جوهرها ولا تنكسر شدتها، ولكنها تتنكب سبيلها الأولى وتسلك سبيلاً غيرها، ويصبح الغضب لا من أجل الذات أو الأموال والأبناء ولكنه من أجل الحق والدعوة إليه.

كان عليه الصلاة والسلام لا يغضب لنفسه، فإذا انتهكت حرمات الله لم يقم لغضبه شيء...»[40].

---

(40) د. محمد المصري، لمحات في وسائل التربية الإسلامية وغاياتها. بيروت: دار الفكر، (بدون تاريخ)، ص 64-57.

وإذا سلمنا أن التطور والتغيّر لا يطرآن على جوهر الغريزة نفسها، وإنما يطرآن على مثيرها والسلوك الناشيء عنها، فإنه من باب أولى لا يطرأ هذا التطور على جوهر الإنسان ونوعه. فالإنسان لم يكن أصله حيواناً من الحيوانات ذات السلسلة الفقرية العليا، سواء أكان هذا الحيوان قرداً أو نسناساً أو غير ذلك من الحيوانات، تحول إلى إنسان تحت سلطان القانون الطبيعي الذي يعطي أولوية البقاء للأصلح ويرفع من شأن عمليات النشوء والارتقاء كما يزعم التطوريون من أمثال «داروين»وغيره من المتأثرين بنظرياتهم وآرائهم التطورية.

إن الفارق بين الإنسان والحيوان ليس مجرد فارق في درجة التعقيد، بل هو فارق في النوع أيضاً. ونظرية «داروين» التي بسطها في كتابه الشهير (أصل الأنواع، 1859 م) وحاول فيه شرح الأساسين الرئيسين وهما: (الصراع من أجل البقاء، والانتخاب الطبيعي)، وبين فيه «الميكانيزمات البيولوجية» المحددة التي يعمل التطور من خلالها، وما نسج على منوالها من نظريات وآراء وافتراضات أخرى لتفسير نشأة وتطور الإنسان، لا تعدو أن تكون ضرباً من الظن ونسج الخيال. فنظرية «داروين» بالذات لا تعدو أن تكون نظرية خيالية لا أساس لها من الواقع ولا تقف أدلتها والمعطيات التي اعتمدت عليها أمام النقد العلمي الدقيق. وعلى أحسن صور الظن بها، فإنهالاتعدوأن تكون افتراضاً أو احتمالاً من احتمالات تفسير نشأة الإنسان. وهناك احتمال آخر أيدته الأديان السماوية بل اعتبرته حقيقة واقعية، ولكنه استبعد من قبل التطوريين لكفرهم وإلحادهم. هذا الاحتمال، أو بالأحرى هذا التفسير الآخر لنشأة وخلق الإنسان، هو: أن الإنسان يرجع في نشأته الأولى وفي خلقه على ما هو عليه من الدقة والاتقان حسن التصوير إلى فعل الخالق المبدع الحكيم، وهو الله تعالى الذي خلق جميع الخلائق على ما هي عليه، وأبقى منها على قيد الحياة ما اقتضت حكمته وإرادته بقاءه وأهلك ما اقتضت الحكمة والإرادة إهلاكه ولم تعد هناك حاجة إنسانية إليه. وقد خلق الله الإنسان بالذات إنساناً منذ اللحظة الأولى، ولم يكن شيئاً آخر غير كونه إنساناً. فهذا هو القول الحق الذي يقبله المسلم والذي يؤيده ظاهر الآيات القرآنية الكثيرة ذات العلاقة ببيان خلق الأشياء عامة وخلق الإنسان خاصة، وبحسن تصوير الإنسان وتكريمه، والتي من بينها:

قوله تعالى: ﴿ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل﴾ (الأنعام/ 103).

وقوله تعالى: ﴿صنع الله الذي اتقن كل شيء﴾ (النمل/ 90).

وقوله تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ (يس/ 82).

وقوله تعالى: ﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾ (غافر/ 64).

وقوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ (التين/ 2).

وقوله تعالى: ﴿ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾ (السجدة/ 9).

وقوله تعالى: ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ (الإسراء/ 70).

إلى غير ذلك من الآيات القرآنية الدالة على أن الله هو الخالق لكل شيء، بما في ذلك الإنسان، وعلى أنه الخالق للإنسان إنساناً منذ اللحظة الأولى في أحسن صورة وفي أحسن تقويم. ولم يكن الإنسان شيئاً آخر غير كونه إنساناً[41].

وهكذا، فإن ما يحدث من تطور وتغيّر في شخصية الإنسان لا يحدث تلقائياً لمجرد حوافر مادية داخلية وليس ثمرة من ثمرات النشوء والارتقاء، كما يقول أصحاب نظرية التطور، بل إن هذا التغير في شخصية الإنسان وفي سلوكه الخارجي وفي عاداته واتجاهاته وقيمه يحدث نتيجة لعملية تعلمه منذ ولادته إلى مماته والتي يقوم هو نفسه فيها بدور بارز وفاعل ونتيجة للتفاعل المختار المستمر بين القوى الداخلية للإنسان وبين عوامل الثقافة والحضارة والبيئة الطبيعية والاجتماعية التي يعيش فيها، تهديه وتوجهه وتلهمه في ذلك وتيسر سبيله قوة خارجية عليا هي قوة الله تعالى، ويساعده في ذلك ما منحه الله من مرونة في الطبع واستعداد للتعلم والتطور والتغير فيما هو مكتسب من القيم والعادات والاتجاهات والصفات. وقد جاء كثير من

(41) ينظر: بريد الوعي الإسلامي، مجلة الوعي الإسلامي. السنة العاشرة العدد 114، يونيو 1974، ص 108-107.

آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وآثار السلف الصالح ما يؤيد ويؤكد المعاني السابقة. فمن ذلك:

قوله تعالى: ﴿**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون**﴾ (النحل/ 78).

وقوله تعالى: ﴿**إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب، فأولئك يتوب الله عليهم، وكان الله عليماً حكيماً**﴾ (النساء/ 17).

وقوله تعالى: ﴿**فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح، فإن الله يتوب عليه، إن الله غفور رحيم**﴾ (المائدة/ 41).

وقوله تعالى: ﴿**إنا هديناه السبيل: إما شاكراً وإما كفوراً**﴾ (الإنسان/ 3).

وقوله تعالى: ﴿**ونفس ما سواها، فألهمها فجورها وتقواها. قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها**﴾ (الشمس/ 10-7).

وقوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» (الحديث).

وقول الإمام علي رضي الله عنه لولده الحسن: «إنما قلب الحديث كالأرض الخالية، ما ألقي فيها من شيء قبلته، فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشتغل لبك».

ثانياً ـ رسالة الإنسان في تعمير الكون ودور التربية في إعداده لتحمل أعباء هذه الرسالة:

الإنسان الذي كرمه الله وفضله على سائر المخلوقات، وصوره فأحسن تصويره، وخلقه على نحو يتكامل فيه الجسم والعقل والروح وبشخصية متميزة بخصائصها الإنسانية التي لا يشاركها فيها أي مخلوق آخر في هذه الحياة، قد خلقه الله في الوقت نفسه لحكمة جليلة سابقة في علمه جل وعلا، ولتحقيق رسالة سامية في هذه الحياة، تتمشى مع ما منحه الله إياه من تكريم وتفضيل على سائر

المخلوقات ومن عقل يفكر به ويستفتيه وإرادة يتحرك بها كيفما شاء وأين شاء ويسيطر بها على غرائزه ودوافعه وشهواته ونزواته. فهذه الرسالة الجليلة السامية وتلك الحكمة البالغة اللتان من أجلهما خلق الإنسان في هذه الحياة يتمثلان في أمرين رئيسيين اثنين، هما: تحقيق العبودية الكاملة والخضوع الكامل لله من ناحية وتحقيق الخلافة الصالحة في الأرض من ناحية أخرى.

وعبادة الله والعبودية الكاملة له تعنيان فيما تعنيان إسلام الوجه له تعالى، والخضوع لعظمته والتسليم المطلق له تعالى، باعتباره صاحب الحق المطلق في خلقه وليس لأحد أن يملك شيئاً دون سلطان منه تعالى، والاعتراف له بالألوهية المطلقة والعبودية المطلقة، والتوجه إليه تعالى بالنية الصادقة في الأمور كلها، واتباع المنهج الذي رسمه لعباده في مختلف الأمور والشؤون، والتلقي الدائم عنه تعالى لضبط وتوجيه ما يقوم به من عمل في مسالكه الصحيحة، وإقامة ما أمر به تعالى من فرائض وشعائر دينية، وامتثال أوامره وتجنب نواهيه جل وعلا، والأمر بالمعروف الذي أمر به ودعا إليه والنهي عن المنكر الذي نهى عنه ونفر منه، إلى غير ذلك من المعاني التي تدخل في مفهوم العبادة بمعناها الواسع الشامل الذي يتجاوز مجرد تأدية الشعائر الدينية إلى كافة جوانب حياة الإنسان وكافة جوانب سلوكه من خواطر ومشاعر وأهداف وآمال وأعمال وجهود يقوم بها الإنسان بقصد تحقيق رضا الله، وامتثال أوامره، وطلب طاعته وتحقيق الخير والسعادة في الدنيا والآخرة.

وأما تحقيق الخلافة الصالحة في الأرض الذي يمثل الشق الثاني من رسالة الإنسان في هذه الحياة ومن حكمة خلقه فإنه يشمل هو الآخر العديد من المعاني والأمور التي لا تتحقق الخلافة الكاملة بدونها. فمن ذلك: العمل الدؤوب بجد وإخلاص وأمانة ودقة من أجل تعمير الأرض والاستمرار في إصلاحها والانتفاع بخيراتها وبكل ما أودعه الله فيها من ثروات وطاقات من أجل خدمة الإنسان وتحسين مستوى حياته وتحقيق سعادته، وجعل هه الأرض المكان الذي ينال فيه الإنسان قسطاً من الجزاء الأكبر عن عمله وكده وجهده في هذه الحياة. كما يشمل كل جهد يبذله الإنسان من أجل الكشف عن الحقائق والقوانين العلمية المختلفة وعن ثروات الأرض وكنوزها، والمحافظة على هذه الثروات والاقتصاد في

استعمالها، وتجاوز نفاذ المصادر الطبيعية في أي مجال بالعمل على اكتشاف مصادر ثروات جديدة أخرى، ودفع عجلة تقدم الإنسان وإصلاح شؤون حياته، وتحقيق العدل والطمأنينة والسير بالبشرية خطوات في طريق الكمال المقدر لها يوم أنشأها الله، وتجنب الإفساد في الأرض والإسراف في استعمال الموارد الطبيعية، ومحاربة الظلم والفساد والقهر والضلال والتضليل، إلى غير ذلك من الأمور التي تدخل في مفهوم خلافة الإنسان على الأرض.

وقد ورد في القرآن الكريم كثير من الآيات الكريمة التي تؤكد ما سبق ذكره من أن الله جلت حكمته لم يخلق الإنسان ولا الكون عامة عبثاً وبدون حكمة، لأن العبث وفقدان الحكمة يتنافيان مع كماله تعالى ولأن إرادته وأفعاله منزهة عن العبث والفوضى. ولم تكن نشأة الإنسان ولا نشأة الحياة عامة على هذه الأرض فلتة عابرة، وإنما كانت عن علم وتدبير. فالله هو الذي هيأ هذه الأرض للحياة وقدر كل ما فيها لتتجاوب مع حاجات الإنسان ومتطلبات تقدمه وتأدية رسالته في هذه الحياة. فمن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون. فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾ (المؤمنون / 116-117).

وقوله تعالى: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ (القيامة/ 35).

وقوله تعالى: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار﴾ (صٓ / 26).

وقوله تعالى: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين، ما خلقناها إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ (الدخان/ 36-37).

وقوله تعالى: ﴿ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون﴾ (الأحقاف/ 2).

وقد بينت آيات القرآن الكريم أن الحكمة من خلق الإنسان وأن وظيفته في هذه الحياة هي عبادة الله بأشكالها وصورها المختلفة التي تشمل جميع مناشط الإنسان في الحياة التي قصد بها وجه الله وطلب رضاه وإظهار العبودية والطاعة له، والتي يستطيع الإنسان عن طريقها أن يحقق ذاته وأمنه وسلامه الداخلي. كما

بينت آيات القرآن الكريم أن الإنسان عابد بفطرته وأنه عابد في جميع عصور حياته، بحيث يمكن القول: إن الفرق بين إنسان وآخر ليس أن إنساناً يعبد والآخر لا يعبد. «بل الفارق هو أن إنساناً يعبد الله والآخر يعبد إلهاً غير الله، قد يكون صنماً أو وثناً أو يكون هو الهوى، كما قال تعالى: ﴿**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم، وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة...**﴾ (الجاثية/ 22). أو يكون أي معبود آخر، ولكن الإنسان في النهاية لا بد أن يكون عابداً لمعبود ما»[42].

ومن الآيات القرآنية الكريمة التي أكدت الشق الأول من رسالة الإنسان في هذه الحياة، وهو عبادة الله تعالى:

قوله تعالى: ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون**﴾ (البقرة/ 20).

وقوله تعالى: ﴿**الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور**﴾ (الحج/ 39).

وقوله تعالى: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون**﴾ (الذاريات/ 57-56).

وقوله تعالى: ﴿**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، وذلك دين القيمة**﴾ (البينة/ 5).

وقد ورد في القرآن الكريم كثير من الآيات الكريمة التي أشارت إلى الشق الثاني من رسالة الإنسان ووظيفته في هذه الحياة، وهو المتعلق بخلافة الأرض وتعميرها بكل جهد مخلص وعمل مثمر، واستخراج ما فيها من ثروات، وامتلاكها على سبيل الاستخلاف، والاستعمار فيها بأمره تعالى وتحت سلطانه وعلى مقتضى تعاليمه وتشريعاته، والانتفاع بما أودعه الله فيها من خيرات، وتجنب أي ضرر أو فساد أو إسراف أو تبذير في استخدام الموارد من شأنه أن يضر بإصلاح الأرض

---

(42) محمد قطب، «النظرية التربوية الإسلامية»، في: قراءات في التربية الإسلامية. تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1982، ص 13.

وتعميرها ويحول دون تغيير وتحويل واقع الإنسان والحياة بصورة عامة إلى ما هو أفضل.

ومن هذه الآيات تمكن الإشارة إلى:

قوله تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة...﴾ (البقرة/ 29).

وقوله تعالى: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم، إن ربك سريع العقاب، وإنه لغفور رحيم﴾ (الأنعام/ 167).

وقوله تعالى: ﴿ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون﴾ (الأعراف/ 9).

وقوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدونني لا يشركون بي شيئا، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ (النور/ 53).

وقوله تعالى: ﴿هو الذي جعلكم خلائف في الأرض، فمن كفر فعليه كفره، ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ولا يزيد الكافرين كفرُهم إلا خساراً﴾ (فاطر/ 39).

وقوله تعالى: ﴿وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ (النحل/ 12).

وقوله تعالى: ﴿وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها، وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ (النحل/ 14).

وقوله تعالى: ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة..﴾ (لقمان/ 19).

وقوله تعالى: ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، إن

في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ (الجاثية/ 12).

وقوله تعالى: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً، فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ (الملك/ 16).

وقوله تعالى: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾ (الأعراف/ 84).

وقوله تعالى: ﴿ولا تطيعوا أمر المسرفين، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ (الشعراء/ 152-151).

كما ورد في القرآن الكريم كثير من الآيات الكريمة التي تذكر الإنسان بما زوده الله به من استعدادات وإمكانات وقدرات تمكنه ـ إن استطاع الاستفادة منها ـ من تحقيق الرسالة السامية التي خلق من أجلها: رسالة العبادة والعبودية الكاملة لله تعالى والاستخلاف في هذه الأرض، وتبين في الوقت نفسه الشروط التي لا بد للإنسان أن يلتزم بها ليستطيع تحقيق رسالته في الحياة والتي من بينها الإيمان الصادق، والعمل الصالح، وتقوى الله والاستقامة على دينه، وتحقيق المنهج الإلهي في الحياة الدنيا، والتحلي بروح الصبر والكفاح والجهاد في سبيل الله. كما تبين آيات القرآن الكريم أن نقطة البدء وحجر الأساس في التغيير الاجتماعي وتغيير الواقع الذي يعيش فيه الإنسان هو تغيير ما بالنفوس، وأن أخذ الإنسان بالأسباب لا يضمن تحقيق النتائج، لأن النتائج إنما يخلقها الله تعالى خلقاً مباشراً ولا دخل للإنسان فيها وأنه ليست هناك علاقة عقلية حتمية بين السبب والنتيجة، وإنما المشاهدة هي التي تقر العلاقة بين السبب والمسبب أو بين السبب والنتيجة. فالله هو الخالق لكل شيء بما في ذلك أفعال الإنسان. وقدرة الإنسان وإرادته يتوقف عملها على إرادة الله ومشيئته. فما أراده الله كان وما لم يرده لن يكون حتى ولو أخذ الإنسان بالأسباب المؤدية إليه وهذا يعني أن الإنسان يظل دائماً في حاجة إلى توفيق الله وحده ومدده وعونه، حتى مع أخذه بالأسباب.

ومن الآيات القرآنية التي تؤكد هذه المعاني:

قوله تعالى: ﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾ (آل عمران/ 114).

وقوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ (النحل/ 97).

وقوله تعالى: ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم، ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، منهم أمة مقتصدة، وكثير منهم ساء ما يعملون﴾ (المائدة/ 68-67).

وقوله تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ (الأعراف/ 96).

وقوله تعالى: ﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير﴾ (هود/ 112).

وقوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ (فصلت/ 29).

وقوله تعالى: ﴿واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ (هود/ 115).

وقوله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين﴾ (العنكبوت/ 69).

وقوله تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾ (الحج/ 38).

وقوله تعالى: ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (الأنفال/ 54).

وقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال﴾ (الرعد/ 12).

وقوله تعالى: ﴿إنك لا تهدي من أحببت، ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾ (القصص/ 56).

وقوله تعالى: ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة، سبحان الله وتعالى عما يشركون﴾ (القصص/ 68).

وقوله تعالى: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ (الصافات/ 96).

وقوله تعالى: ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله، إن الله كان عليماً حكيماً﴾ (الإنسان/ 30).

وقوله تعالى: ﴿أفرأيتم ما تمنون، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾ (الواقعة/ 62-61).

وقوله تعالى: ﴿أفرأيتم ما تحرثون، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون، لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون﴾ (الواقعة/ 68-66).

إلى غير ذلك من الآيات القرآنية الكريمة التي بينت الحكمة من خلق الإنسان، وبينت وظيفته ورسالته في هذه الحياة والشروط التي لا بد له من الأخذ بها ليستطيع تأدية رسالته على الوجه المرغوب، وأوضحت حدود إمكانات الإنسان وحاجته إلى عون الله وتوفيقه في كل وقت وحين.

وقد جاءت السنة النبوية المطهرة مدعمة وشارحة ومفصلة لجميع المعاني السالفة الذكر المتعلقة برسالة الإنسان في تعمير الكون. ولا يتسع المقام لسرد الأحاديث النبوية الشريفة التي جاءت تشرح وتفصل أبعاد تلك الرسالة وشروط النجاح في تأديتها.

دور التربية في إعداد الإنسان لتحمل أعباء رسالته في الحياة:

وليستطيع الإنسان القيام بالدور المنوط به في تأدية رسالته في الحياة، عليه جانب كبير من المسؤولية في إعداد نفسه لمسؤوليات هذه الرسالة، بتزكية نفسه والأخذ بالأسباب التي تمكنه من تربية وإعداد نفسه لتحمل أعباء استخلافه في الأرض عبادة وتعميراً وإصلاحاً وتطويراً وتجديداً، وبالاستفادة مما منحه الله من عقل وإرادة ودوافع للعمل والتملك والنجاح وتحقيق الذات ومن طبيعة مرنة وشخصية مطاوعة للتغيير وقابلة للتعلّم والتدريب في اكتساب وتنمية المعارف

والمهارات والاتجاهات التي يحتاجها العمل المثمر في الحياة وفي السمو بنفسه والارتفاع بمستوى حياته والانتفاع بوقته واغتنام حاضره في إصلاح ماضيه ومستقبله. وإصلاح الماضي يكون بالتوبة والندم على ما وقع فيه من تفريط وبالاستغفار. وإصلاح المستقبل بالاستفادة من عبر الماضي وبالاستعداد والتخطيط الواعي لمواجهة احتياجاته ومشكلاته وبعقد العزم على إصلاح حال النفس فيه وعلى ترك المعاصي والذنوب.

ولكن مهما كانت أهمية الدور الذي يقوم به الإنسان في تربية وتعليم نفسه وفي إصلاح أحواله وظروفه، فإنه لا يستغني عن عوامل التعليم والتربية التي تأتي من خارج ذات الإنسان لتتفاعل مع إمكاناته ومكوناته الداخلية.

فالتعليم المقصود وغير المقصود الذي تقوم به مؤسسات وأجهزة المجتمع المختلفة أمر ضروري لإعداد الإنسان للحياة الإنسانية ولإكسابه خصائص وعادات المجتمع الذي يعيش فيه، وإبراز خصائصه الإنسانية، وإخراج ما أودعه الله فيه على سبيل الاستعداد والإمكان إلى حيّز الفعل والسلوك الملاحظ الملموس، وتهذيب سلوكه وتبليغه مستوى النمو أو الكمال المستعد له، وتهيئته لدور الخلافة في الأرض ولتحمل أعباء ومسؤوليات هذه الخلافة والوفاء بالتزاماتها. ولا يمكن للإنسان أن يدرك ويقدر أهمية الدور الذي تقوم به التربية بأنواعها المختلفة في وسط بشري، بالنسبة لتنمية الشخصية الإنسانية وإكسابها خصائصها الإنسانية، إلا إذا تصور كائناً بشرياً عاش لفترة طويلة بين الحيوانات بعيداً عن المجتمع البشري، كما حدث فعلاً بالنسبة للفتاتين اللتين تربيتا بعد ولادتهما مباشرة في وسط حيواني ولم تتمكنا بسبب ذلك من تنمية كثير من خصائصهما الإنسانية، وأظهرتا أن الكائن البشري مدين في اكتساب معظم مقومات شخصيته وخصائصه الإنسانية إلى التربية في وسط بشري اجتماعي.

وعند الحديث عن التربية، فإنه يقصد بها في مفهومها العام الواسع: مجموعات العمليات والجهود الموجهة إلى تحقيق التغير المرغوب فيه في سلوك الأفراد وفي حياة وأحوال وظروف المجتمعات التي يعيشون فيها.

وهي بالنسبة للفرد تعتبر عملية تفتّح ونمو لاستعداداته وجوانب شخصيته المختلفة. كما تعتبر أيضاً عملية تعلم، وعملية تكيّف مع الوسط الذي يعيش

فيه الفرد، وعملية تطبيع اجتماعي أو تنشئة اجتماعية، وعملية إعداد للحياة في مجتمع معين[43].

وهذه العمليات جميعاً مترابطة متداخلة فيما بينها. وتدخل جميعاً تحت مظلة عملية التربية أو عملية التغير المرغوب الشامل و عملية النمو الشامل المتكامل لشخصية الفرد. فكل جانب من جوانب شخصية الإنسان قابل للتغيير والتعديل والتطوير والنمو والتهذيب. ومهمة التربية أن تهيأ الظروف والشروط الضرورية لتفاعل الإنسان مع بيئته، وتحقيق نمو شخصيته الشامل المتكامل، عن طريق تزويده بالعلم النافع والتدريب المفيد له في حياته والتوجيه السليم لإمكاناته واستعداداته لتصل أقصى نمو ممكن لها.

ولتوضيح وتخصيص ما يمكن أن تقوم به التربية في تنمية شخصية الإنسان، تمكن الإشارة الموجزة إلى دورها في جوانب النمو التالية:

1 ـ ففي مجال النمو الجسمي للإنسان، تستطيع التربية المقصودة وغير المقصودة والعرضية أن تساهم مساهمة فعّالة في تسهيل عملية هذا النمو بنوعيه التكويني والوظيفي، فتساعد على تقوية عضلاته وتنمية استعداداته ومهاراته وقدراته البدنية، وعلى اكتساب المعارف والمهارات والاتجاهات والعادات الصحية الوقائية والإنمائية والعلاجية البسيطة والمعارف والاتجاهات والعادات الغذائية السليمة، بما يمكنه من المحافظة على صحته الجسمية ولياقته البدنية ومن إشباع حاجاته العضوية من غير إسراف ولا تقتير ومن غير إفراط ولا تفريط ومن تحقيق أمنه وسلامته البدنيين، فيغدو بذلك صحيحاً قوياً، والمؤمن القوي في نظر الإسلام خير من المؤمن الضعيف.

2 ـ وبالنسبة للجانب العقلي، فإن التربية ـ خاصة المقصود منها، وهي ما تتم عادة في مؤسسات تربوية أنشئت خصيصاً لغرض التربية ـ من شأنها أن تساعد الإنسان على كشف وتفتيح وبلورة استعداداته ومواهبه وقواه وإمكاناته العقلية، وعلى تنميتها وتهيئة فرص التدريب والممارسة العملية لها، حتى تنطلق من عقالها وتصبح مهارات وقدرات فعلية. وإذا كان للوراثة تأثير كبير في نشأة

(43) ينظر: كتابنا: الاتجاهات الحديثة في مفهوم التربية. مرجع سابق، ص 316-263.

ستعدادات الإنسان العقلية وفي مقدار ما ينوب الإنسان من هذه الاستعدادات العقلية، فإن تفتيح وإيقاظ وتنمية هذه الاستعدادات والإمكانات الموروثة يتوقف إلى حد كبير على مدى ما يتوفر في البيئة التي يعيش فيها الإنسان من مثيرات وحوافز تساعد على النمو العقلي وتدفع إليه، وعلى كم ونوع التربية التي يتلقاها.

فعن طريق التربية الصالحة والتعليم النافع الغني بمثيراته وحوافزه وخبراته والجيد في مناهجه وبرامجه وطرقه وأساليبه ووسائله وأدواته وتجهيزاته وخدماته، يستطيع الإنسان أن ينمي ذكاءه العام؛ ويكتشف وينمي استعداداته ومواهبه وميوله وقدراته العقلية، ويوسع من رصيده المعرفي ومن ثقافته العامة حول نفسه وحول مجتمعه وأمته وحول العالم الواسع المحيط به، وينمي مهاراته وقدراته اللغوية، ويتعلم المهارات الأساسية لكسب المعرفة كمهارة القراءة والكتابة ومهارة التعامل بالأرقام والرموز الرياضية، فيصبح بذلك كله أقدر: على التعلّم الصحيح، وعلى الحكم والفهم السليمين وإدراك العلاقات بين الأشياء المحسوسة والمعاني المجردة على حد سواء، وعلى إعمال عقله في مواجهة وحل ما يواجهه من مشكلات في الحياة وفي التعمق في فهم الأشياء واستجلاء غوامضها والتعرف على أدق مقوماتها وخصائصها، وعلى التفكير المنطقي والموضوعي السليم، وعلى النقد النزيه البناء، وعلى الخلق والإبداع والتجديد، وعلى إدراك الجمال والإحساس به وتذوقه وتقديره في شتى مظاهره وألوانه، وعلى إدراك ما في الكون عامة وما في النفس البشرية والذات الإنسانية خاصة من مظاهر الإعجاز وبدائع الصنع والحجج الملموسة والبراهين القاطعة على وجود الخالق المبدع الحكيم للكون والإنسان، وعلى إدراك الخط الفاصل بين الحقيقة القرآنية ذات المصدر الإلهي وبين الحقيقة العلمية ذات المصدر البشري. فحقائق القرآن التي تستمد مصدريتها من العلم الإلهي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. في حين أن حقائق العلم البشري، وبتعبير أدق معطيات العلم البشري تبقى أسيرة نسبيتهاوتغيّرها وتحولهاو حتمال خطئها.

وفوق ذلك كله، فإن التربية الصالحة تجعل الإنسان المسلم العربي في وضع أقدر على المساهمة والعطاء من أجل تقدم أمته العربية الإسلامية علمياً وتقنياً والخروج بها من ربقة التخلف العلمي والركود الفكري والضعف في روح الخلق

والإبداع والمبادرة والتجديد، كما تجعله في موقف أقدر على الانتفاع بما تملكه أمته العربية من موارد طبيعية وطاقات كبيرة، حيث إن هذه الطاقات وتلك الموارد لا تزال ـ كما يقول الدكتور عبد الله عبد الدايم ـ «حبيسة ضمور الإنسان العربي وركوده. وما نجده من تخلّف ف شتى ميادين حياتنا الزراعية منها والصناعية والعلمية والتكنولوجية، هو وليد هذا الضمور وذلك الركود. كل شيء في إمكاناتنا المادية والبشرية يشير إلى أن المتوقع والمأمول أن نكون أفضل حالاً مما نحن عليه. فهل نملك حقاً تلك الإمكانات؟ الراجح أننا لا نملكها، لأننا لا نملك القدرة على استغلالها أوسع استغلال ممكن، ولأننا لم نحس تكوين الإنسان القادر على ذلك. ومع ذلك ما نزال نتابع السير نحو سراب هارب، فنجهد ونجهد لنقل العلم والتكنولوجيا وأدواتها دون أن نكون القدرة الذاتية على إبداعهما، وننسى وسط الزحام محور المحاور، نعني الإنسان المبدع المجدد.

من أعماق ذلك الإنسان ينبغي أن نمتاح القدرة والغنى. ومن تفجير طاقاته ينبغي أن نرتاد الطريق الجديدة، ومن إيقاظه بعد سبات وتعريفه بذاته وعالمه نرجو توليد رؤية عربية أصيلة قمينة بأن نحاور العالم من خلالها[44].

3 ـ وفي مجال النمو النفسي والانفعالي والعاطفي والوجداني، فإن التربية الصالحة في مختلف الأوساط التي يتفاعل معها الإنسان في حياته تستطيع أن تساهم مساهمة فعالة في مساعدة الإنسان على تهذيب انفعالاته وتوجيهها الوجهة المرغوبة التي يرضى عنها ربه وتصبح معها طاقات ودوافع للخير والعمل البناء المثمر الذي يحقق مصالحه ومصالح المجتمع الذي يعيش فيه، وفي مساعدته على تحقيق نضجه الانفعالي والارتقاء بنفسه وتهذيبها، وفي تنمية إرادته القوية والخيرة الدافعة للعمل والحاملة عليه وفي تنمية ما تحتاجه الإرادة من قدرة على العمل حيث إن العمل مرهون إنجاز بوجود الإرادة والقدرة معاً، وفي إيقاظ وتنمية العواطف الإنسانية الصادقة لديه، التي تجعل منه إنساناً يحب أسرته وجيرانه ووطنه وبنى وطنه وأمته ويتعاطف معهم ويحس بآلامهم وبمشاكلهم ويضحي من أجلهم ويحب الخير لكل إنسان. كما تستطيع التربية الصالحة أن تساعد

---

(44) د. عبدالله عبدالدائم، التربية في البلاد العربية: حاضرها ومشكلاتها ومستقبلها، من عام 1950 إلى عام 2000. (الطبعة الرابعة)، بيروت: دار العلم للملايين، 1983، ص 776.

الإنسان على إشباع كثير من حاجاته النفسية، وأن توفر له الفرص والمناشط التي تمكنه من التعبير عن مشاعره ودوافعه وعن طاقاته الزائدة بالطرق المقبولة، ومن تحقيق ذاته وتنمية الشعور بقيمتها واحترامها والثقة فيها من غير غرور ولا تكبر، ومن تحقق التكيف مع نفسه ومع من وما حوله، ومن تنمية الاتجاهات النفسية السليمة نحو نفسه ونحو غيره، ومن بناء عادات ضبط النفس وكظم الغيظ والصبر والثبات في المواقف الحرجة، ومن تحرير نفسه من الخوف والقلق والوساوس والأوهام النفسية التي لا أساس لها من الصحة ومن التردد والوهن والاستسلام أمام الشدائد والتحديات، ومن تحرير نفسه من أمراض الحسد والغيرة والحقد والطمع وضعف اليقين والشك وما إلى ذلك من أمراض النفس والقلب.

4 ـ وفي مجال النمو الروحي والخلقي الذي هو جزء لا يتجزأ من النمو النفسي، فإن التربية الصالحة يمكن أن تكون أكبر عوناً للإنسان على تقوية إيمانه وعقيدته ومعرفته بربه وبمعتقدات وتعاليم وأحكام دينه، وعلى تكوين الاتجاه الإيجابي والرغبة الصادقة في تطبيق تعاليم دينه والالتزام بأوامره ونواهيه في حياته العامة وفي سائر علاقاته ومعاملاته مع ربه ومع غيره من الناس ومخلوقات الله جميعاً، وعلى تقوية روحه الدينية وإيقاظ وتنمية ضميره الديني والخلقي ليستطيع محاسبته على ما يصدر منه ويحول بينه وبين الوقوع في المعاصي ومواقع الزلل، وعلى تنمية روح الالتزام الديني والخلقي لديه، وعلى تهذيب أخلاقه وغرس ما حس من الأخلاق والصفات والخصال الحميدة في نفسه. ويأتي في مقدمة هذه الأخلاق والصفات: تقوى الله، وخشيته، ومراقبته في السر والعلن، وإسلام الوجه إليه وحسن التوكل عليه، والصدق والإخلاص في القول والعمل، والأمانة، والاستقامة على دين الله، وحب الخير للناس، والإيثار، والشفقة، والرحمة، والإحسان، والبذل والتضحية، والتسامح، واحترام النظام، والعفة، والصبر، والشجاعة والإقدام والحزم والتصميم والقوة في الحق، والتواضع، إلى غير ذلك من الصفات والفضائل الخلقية التي يمكن للتربية الصالحة أن تساعد

(45) ينظر كتابنا: دور التربية في بناء الفرد والمجتمع. (الطبعة الثانية)، ليبيا: المنشأة العامة للنشر والتوزيع، 1983، ص 30-9.

على بنائها في نفس الإنسان كجزء من تربيته الروحية والخلقية والاجتماعية.

وفي الوقت نفسه تستطيع التربية الصالحة تحرير القلب والنفس مما عسى أن يكون عالقاً فيهما من ذميم الخصال وسيء العادات كرقة الدين وضعف الوازع الديني والخلقي، واليأس، والنفاق، والكذب، والغش، وكراهية الناس، والأنانية، والقسوة، والبخل، والتعصب، والفوضى، والجزع، والجبن، والتردد، والتكبر، وما إلى ذلك من الصفات والعادات السيئة التي يمكن للتربية الصالحة أن تساعد على تغييرها.

5 ـ وفي مجال النمو الاجتماعي الذي يرتبط بالنمو العقلي والنفسي والروحي والخلقي تمام الارتباط ويعتبر المحصلة لما استفاده الإنسان من تربيته العقلية والنفسية والروحية والخلقية، تستطيع التربية الصالحة أن تساهم مساهمة فعالة في تحقيق غاياته وفي إحداث التغيرات السلوكية التي يتطلبها، بحيث يصبح الإنسان العربي المسلم فرداً صالحاً في مجتمعه وأمته، ناجحاً في علاقاته الاجتماعية والإنسانية، مقدراً لواجباته ومسؤولياته الاجتماعية وملتزماً بتأديتها على خير وجه، ومتعاوناً في كل ما من شأنه أن يساهم في تطور وتقدم مجتمعه العربي المسلم وتقدم أمته العربية الإسلامية، ومتحلياً بكل ما من شأنه أن يزيد من فاعليته كفرد صالح منتج ومؤثر في حياة مجتمعه وأمته من الصفات الإيجابية التي سبق ذكر بعضها والتي من بينها: العلم النافع، وامتلاك المعارف والمهارات والاتجاهات التي يتطلبها العمل المثمر، والوعي الكامل بواجباته وحقوقه ودوره ورسالته في هذه الحياة وبسنن وقوانين التغير الاجتماعي، والإرادة الخيرة والرغبة في التغيير والتجديد وفي خدمة المجتمع، وتقدير المصلحة العامة، والصبر والإخلاص والإيثار والتضحية ونكران الذات، وحب الخير، وروح التعاون، وحب العمل والنظام، وبعد النظر وحسن التصرف، وحسن المعاملة والفهم الواعي لتعاليم الدين ولعلاقة الدين بالحياة وبالعمل والإنتاج، إلى غير ذلك من هذه الصفات الإيجابية.

هذه هي أهم جوانب النمو البشري التي يمكن للتربية الصالحة أن تساهم فيها مساهمة فعالة، وبهذه المساهمة تعد الإنسان لتحمل أعباء رسالته في الحياة وللقيام بما أراده الله له من خلافة الأرض وتعميرها بعبادة الله والعمل الصالح المثمر وتجعله جديراً بالمكانة والتكريم والتفضيل على سائر المخلوقات وبغير ذلك

من النعم الكثيرة التي أنعم الله بها عليه «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها».

وإلى هنا ينتهي بنا المطاف في هذا البحث. فالله أعلم والحمد لله أولاً وآخراً.

مراجع البحث

(1) أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. (تحقيق: عبد القادر عطا)، دار الاعتصام 1975.

(2) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين. (الجزء الثالث)، القاهرة: مطبعة صبيح. ب. ت.

(3) أبو حامد الغزالي، ميزان العمل. (تحقيق: سليمان دينا)، القاهرة: دار المعارف بمصر، 1964.

(4) أبو علي الحسين بن سينا، النجاة في الحكمة المنطقية والطبيعية والإلهية (القسم الأول) (نشر وتعليق: محيي الدين صبري الكردي)، القاهرة: مطبعة السعادة، (الطبعة الثانية)، 1938.

(5) أبو علي الحسين بن سينا، الشفاء: الطبيعيات، رقم (6)، النفس. (تحقيق قنواتي وسعيد زايد)، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975.

(6) أبو علي أحمد بن مسكويه، تهذيب الأخلاق. (تحقيق: قسطنطين زريق) بيروت: الجامعة الأميركية ببيروت، 1966.

(7) إبراهيم وجيه محمود، الفروق الفردية في القدرات العقلية. ليبيا: من منشورات الجامعة الليبية، 1973.

(8) أبو بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي القيرواني، كتاب الإشارة إلى أدب الإمارة. (تحقيق: رضوان السيد) بيروت: دار الطليعة، 1981.

(9) أبو العلا عفيفي، كتاب فصوص الحكم لابن عربي والتعليقات عليه. بيروت: دار الكتاب العربي، 1980.

(10) إبراهيم سليمان عيسى، «رؤية إسلامية لبعض الحقائق العلمية»، المجلة

الإسلامية. السنة الثامنة، العدد 15، 1984.

(11) أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، مختصر منهاج القاصدين. (الطبعة الثالثة)، بيروت: من منشورات المكتب الإسلامي، 1969.

(12) أحمد رزوق، كتاب الإعانة. (تحقيق: علي فهمي خشيم)، ليبيا، تونس، الدار العربية للكتاب، 1979.

(13) أحمد شلبي، المجتمع الإسلامي. (الطبعة الثالثة)، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1967.

(14) أحمد محمد جمال، «نظرية التربية الإسلامية»، في: قراءات في التربية الإسلامية. تونس: المنظمة العربية لتربية والثقافة والعلوم، 1982.

(15) أحمد فائز، طريق الدعوة في ظلال القرآن. (جزآن)، بيروت: دار الرسالة، 1983.

(16) إحسان عباس، «الأصالة في الثقافة القومية المعاصرة»، في: القومية العربية والإسلام. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1981، ص 445-453.

(17) التهامي نقرة، عقيدة البعث في الإسلام. (الطبعة الثانية)، تونس: مطبعة القلم، ب. ت.

(18) التهامي نقرة، في ضوء القرآن والسنة. تونس: الشركة التونسية للتوزيع، 1976.

(19) جودت سعيد، حتى يغيروا ما بأنفسهم. (الطبعة السادسة)، دمشق: مطبعة زيد بن ثابت الأنصاري، 1984.

(20) جعفر شيح ادريس، «التصور الإسلامي للإنسان أساس لفلسفة الإسلام التربوية»، مجلة المسلم المعاصر، العدد الثاني عشر، (أكتوبر ـ ديسمبر 1977) ص 67-78.

(21) حسن محمد الشرقاوي، نحو علم نفس إسلامي. الاسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 1984.

(22) زكي محمد إسماعيل، نحو علم الاجتماع الإسلامي. الاسكندرية: دار المطبوعات الجديدة، 1981.

(23) زيدان عبد الباقي، علم الاجتماع الإسلامي. القاهرة: مطبعة السعادة، 1984.

(24) سعد جلال، المرجع في علم النفس. الاسكندرية: دار المعارف، 1971.

(25) سعيد المرصفي، نفحات رمضان وأثرها في تكوين الشخصية الإسلامية. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1985.

(26) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (المعروف بابن قيم الجوزية)، الفوائد. (الطبعة الخامسة) (تحقيق: أحمد راتب عرموس) بيزوت: دار النفائس، 1984.

(27) علاء الدين الطوسي، تهافت الفلاسفة. (تحقيق: رضا سعادة)، بيروت: الدار العالمية للطباعة، 1981.

(28) عبد الله عبد الدايم، التربية في البلاد العربية: حاضرها ومشكلاتها ومستقبلها من عام 1950 إلى عام 2000. بيروت: دار العلم للملايين، 1983 (الطبعة الرابعة).

(29) عبد العزيز الدوري، «الإسلام وانتشار اللغة العربية والتعريب»، في: القومية العربية والإسلام. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1981، ص 65.

(30) عبد الغفار هلا، «اللغة بين الفرد والمجتمع» مجلة اللسان العربي. العدد الثالث والعشرون، 1983 ص 45-13.

(31) عبد الكريم القشيري، نحو القلوب. (تحقيق: أحمد علم الدين الجندي)، ليبيا ـ تونس: الدار العربية للكتاب، 1979.

(32) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون (الجزء)، تحقيق: (علي عبد الواحد وافي)، القاهرة: لجنة البيان العربي، 1968.

(33) عماد الدين خليل، «في التفسير الإسلامي للتاريخ: المسألة الحضارية»، مجلة

المسلم المعاصر، العدد الأول والثاني، أبريل 1975، ص 39-9.
(34) عبد الكريم عثمان، الدراسات النفسية عند المسلمين «والغزالي بوجه خاص». القاهرة: مكتبة وهبة، 1963.
(35) علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام. (الجزء الأول، الطبعة الرابعة)، القاهرة: دار المعارف، 1966.
(36) عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء)، القرآن وقضايا الإنسان. بيروت: دار العلم للملايين، 1972.
(37) عمر محمد التومي الشيباني، مقدمة في الفلسفة الإسلامية. ليبيا ـ تونس: الدار العربية للكتاب، 1975.
(38) عمر محمد التومي الشيباني، فلسفة التربية الإسلامية. ليبيا: المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، 1975.
(39) عمر محمد التومي الشيباني، الاتجاهات الحديثة في مفهوم التربية. (ط 2)، ليبيا: المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، 1982.
(40) عمر محمد التومي الشيباني، دور التربية في بناء الفرد والمجتمع. (ط 2)، ليبيا: المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، 1983.
(41) كاظم ولي آغا، علم النفس الفسيولوجي. بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1981.
(42) محمد عبد الرحمن مرحبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية. بيروت: منشورات عويدات، 1970.
(43) محمد قطب، دراسات في النفس الإنسانية. ب. د. ن، 1972.
(44) محمد قطب، «النظرية التربوية الإسلامية»، في: قراءات في التربية الإسلامية. تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إدارة التربية، 1972، ص 21-9.
(45) محمد علي ضناوي، المفهوم والتجربة. طرابلس، لبنان: دار الإيمان للطباعة والنشر والتوزيع، 1980.

(46) محمد فائز المط، من كنوز الإسلام. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1984.
(47) محمد شديد، الجهاد في الإسلام. (الطبعة الخامسة)، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1984.
(48) محمد سعيد البوطي، من الفكر والقلب. دمشق: مكتبة الفارابي، 1972، (الطبعة الثانية).
(49) محمد سعيد البوطي ، الإنسان وعدالة الله في الأرض. بيروت: مؤسسة الرسالة، 1983، (الطبعة الخامسة).
(50) محمد الغزالي، «نظرية التربية الإسلامية» في: قراءات في التربية الإسلامية. تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إدارة التربية، 1972، ص 31-22.
(51) محمد بن البشير، «الثابت والمتغير في نظرة الإسلام إلى القضايا الاقتصادية والاجتماعية» المجلة الإسلامية. العدد التاسع، 1981.
(52) محمد عزيز الحبابي، «الإنسان حيوان يتكلم»، مجلة دعوة الحق. السنة السادسة عشر، العدد، 1973، ص 115-107.
(53) محمد أحمد خلف الله، «التكوين التاريخي لمفاهيم الأمة والقومية والوطنية والدولة والعلاقة بينها»، في: القومية العربية والإسلام. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1981، ص 19.
(54) مصطفى عبد الرازق، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية. (الطبعة الثالثة)، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والنشر، 1966.
(55) محمد أمين المصري، لمحات في وسائل التربية الإسلامية وغاياتها. بيروت: دار الفكر، ب. ت.
(56) نظمي لوقا، الحقيقة عند فلاسفة المسلمين. القاهرة: مكتبة غريب، 1982.
(57) يوسف مصطفى القاضي ومقدار يالجن، علم النفس التربوي في الإسلام. الرياض: دار المريخ، 1981.